



مولود معمري - تيزي وزو
كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية



قسم: العلوم الإنسانية

فرع: التاريخ

**الإمبراطور شارل الخامس 1519 - 1556م
- المسار و الأعمال -**

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519 - 1830م

إشراف:

أ . عزيز خيثر

إعداد الطالبة:

عيدة إغيل عامر

السنة الجامعية: 1444 - 1445 هـ / 2023 - 2024م



جامعة مولود معمري - تيزي وزو

كلية العلوم الإنسانية و الإجتماعية

قسم : العلوم الإنسانية

فرع: التاريخ

الإمبراطور شارل الخامس 1519 - 1556م
- المسار و الأعمال -

مذكرة مقدمة لنيل شهادة الماستر في التاريخ

تخصص: تاريخ الجزائر الحديث 1519 - 1830م

إشراف:

أ. عزيز خيثر

إعداد الطالبة:

عيدة إغيل عامر

اللجنة المناقشة

رئيسا

مناقشا

مقررا

الأستاذة زكية فلاح

الأستاذ رشيد مريخي

الأستاذ عزيز خيثر

السنة الجامعية: 1444 - 1445 هـ / 2023 - 2024م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

إهداء

قال الله تعالى : "يرفع الله الذين آمنوا منكم و الذين أوتوا العلم درجات"

شيء جميل أن يسعى الإنسان إلى النجاح و يحصل عليه، و الأجل أن يذكر من كان السبب في ذلك.

اهدي ثمرة عملي المتواضع إلى من قال فيهما الله عز وجل "وقل ربي ارحمهما كما ربياني صغيرا"، إلى والدي إلى من في بسمتهما غابتي وفي رضاها جنتي، و في دعائهما بر أمن لنجاحي و في طاعتهما مغفرة ربي، إلى من غرسا في روحي مكارم الأخلاق، إلى من انتزعا الأشواك من دربي ليمهدا لنجاحي و دعما مسيرتي الدراسية إلى مصدر قوتي، أسأل الله أن يطيل في عمركما.

و إلى من أشددت بهم عضدي و زرعوا الثقة و الإصرار بداخلي، سندي والكتف الذي أسند عليه إخوتي و أخواتي كل باسمه دتم فخرا لي .

ثم أعرج إلى أسرتي الثانية إلى أساتذتي كل باسمه، أولائك الذين عزموا أن نكون دائما في أعلى المراتب، أسأل الله أن يبارك في جهودكم و يسدد على درب الخير خطاكم.

إلى صديقاتي و أصدقائي الذين كانوا في السنوات العجاف سحابا ممطرا.

إلى كل من صادفني به الطريق في رحلتي العلمية طيلة الخمس سنوات، خاصة زملائي في التخصص.

شكر و عرفان

إلهي لا يطيب الليل إلا بشكرك، و لا يطيب النهار إلا بعطائك،
ولا تطيب اللحظات إلا بذكرك، ولا تطيب الآخرة إلا بعفوك،
ولا تطيب الجنة إلا برويتك.

من لم يشكر الناس لا يشكر الله، الحمد لله الذي وهبنا التوفيق و السداد و منحنا الثبات
و أعاننا على إتمام هذا العمل المتواضع، و اعترافا بالفضل و الجميل أتوجه بعميق الشكر
و التقدير إلى الوالدين الكريمين، و إلى كل إخواني و أخواتي الذين كانوا سندا لي،
دون أن أنسى صديقاتي.

كما أتقدم بجزيل الشكر إلى الأستاذ المشرف عزيز خيثر الذي تكرم بقبوله الإشراف
على هذا البحث، و الذي أجزل بعطائه الغير محدود وسعته و إلهامه، و شغفه
المستمر في تتبع خطوات هذا البحث و توجيهه طيلة فترة إنجازه.

مقدمة

يعتبر موضوع الإمبراطور شارل الخامس (1519-1556م) من الموضوعات المهمة، كونه يمثل صفحة مهمة من تاريخ إسبانيا و أوروبا و العالم ككل، فنتويج الإمبراطور شارل الخامس ملكا على العرش الإسباني في 20 فيفري 1518م، ثم إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة في 28 جوان 1519م أحدث نقلة نوعية في تاريخ أوروبا و مرحلة جديدة كان لها أثرها في التاريخ السياسي و العسكري خاصة، لأن شارل الخامس من الشخصيات المهمة التي تركت أثرا واضحا ليس في تاريخ إسبانيا فحسب، بل في تاريخ العالم ككل ويتجلى ذلك في إطلاق تسمية العصر الذهبي على الحقبة الزمنية التي حكم فيها إسبانيا، و التي شهدت الكثير من الأحداث و التغييرات السياسية و الاجتماعية، والتي أصبحت فيها إسبانيا إمبراطورية عظمى امتد نفوذها الذي إلى معظم بلدان العالم.

و تكمن الأهمية التاريخية لهذه الدراسة في معرفة واحدة من أهم الشخصيات التي كان لها صدى في التاريخ الأوروبي الحديث، هذه الشخصية التي حكمت إمبراطورية عظمى كان لها تأثير على الأحداث العالمية و على وجه الخصوص أوروبا و إفريقيا، ففترة حكم الإمبراطور شارل كان كانت غنية بالأحداث التاريخية التي لها صلة بعدة بلدان لا يمكن تجاوزها و عدم الخوض فيها.

تهدف هذه الدراسة إلى تسليط الضوء على هذه الشخصية، و دراسة الأحداث التي ميزت فترة حكمه من أجل الوقوف على أهم التطورات التي كانت حاصلة في تلك الفترة، و التعرف على أهم الحروب التي ميزت الفترة الحديثة في أوروبا و التي تمخض عنها عدة تحالفات، وكذا التعرف على الصراع الحاد الذي كان بين الإيالات العثمانية (الجزائر و تونس) و إسبانيا خلال فترة حكمه، و التعرف على المذهب البروتستانتي الذي جر أوروبا إلى حروب دموية في الفترة التي تلت فترة حكمه.

ولعل من أسباب اختياري للموضوع هو ذلك الدور التاريخي لشخصية الإمبراطور شارلكان، و الأثر الذي تركه في السياسة الإسبانية طول فترة حكمه، هذه الفترة الغنية جدا بالأحداث التاريخية الملحمية، و يضاف إلى هذا رغبتى الذاتية في معرفة هذه الشخصية التي كان لها علاقة واحتكاك بالجزائر خلال القرن 16م.

ولمعالجة موضوع الإمبراطور شارل الخامس (1519 - 1556م)، ارتأيت أن تتمحور إشكالية هذه الدراسة حول طبيعة مسار وأعمال الإمبراطور شارلكان سواء في تسيير إمبراطوريته والحفاظ على ممتلكاته في أوروبا و خارج أوروبا و أيضا مدى نجاح توسعته في إفريقيا. تفرعت هذه الإشكالية بدورها إلى مجموعة من التساؤلات وهي:

- من هو الملك شارلكان وما الذي ترتب عن اعتلائه العرش الإسباني؟
- كيف واجه الإمبراطور شارلكان رغبة فرنسا في التوسع في إيطاليا؟
- كيف كان موقف الإمبراطور شارلكان من الحركة اللوثرية في ألمانيا والتي قادها مارتن لوثر؟

- إلى أي مدى نجح الإمبراطور شارلكان في سيطرته على سواحل الإيالات العثمانية في الحوض الغربي للبحر المتوسط؟

وقد حصرت بحثي هذا في فترة حكم الإمبراطور شارلكان (1519م - 1556م)، والتي تعد فترة حاسمة و مهمة لها أثرها سواء في أوروبا على وجه الخصوص إسبانيا و فرنسا و ألمانيا، و على الإيالات التابعة للدولة العثمانية الجزائر و تونس.

إن طبيعة الموضوع فرضت عليا إتباع عدة مناهج في البحث التاريخي العلمي، ارتأيت أنها الأنسب لمعالجة الإشكالية المطروحة، وفي مقدمتها المنهج التاريخي الذي لا يمكن الاستغناء عنه بحكم التخصص فهو الأنسب لفهم المادة وتحليلها و تمحيصها، فهو عبارة عن دراسة تاريخية تهدف إلى تتبع مسار الإمبراطور شارلكان من بداية حكمه إلى تنازله

عن الحكم، و لتحقيق هذه الغاية استعنت بالمنهج التحليلي لدراسة ما توثق لدي من مادة علمية وعرض الأفكار الواردة فيها و إسقاطها على البحث، و المنهج الوصفي و السردى فى وصف الأحداث التاريخية المحيطة لفترة حكم الإمبراطور شارلكان.

و من أجل معالجة إشكالية الموضوع و إعطائها نصيبها من البحث و التحري، و بناء على ما توفر لدي من مادة علمية فى كل ما جاءت به المصادر و المراجع المختلفة، وضعت خطة تفصيلية للموضوع تضمنت مقدمة وثلاثة فصول و خاتمة متبوعة بملاحق لها صلة بالموضوع من خرائط و هياكل و صور من شأنها أن تزيد البحث وضوحا و علمية، و تفصيلها كالتالى:

الفصل الأول بعنوان اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)، و الذى شمل ثلاثة مباحث: أولا الحياة الاجتماعية للإمبراطور شارل الخامس، ثانيا اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني عام 1518 ثم العرش الإمبراطوري عام 1519م، ثالثا إصلاحات الإمبراطور شارلكان فى إسبانيا و تنازله عن العرش حتى وفاته عام 1558م.

أما الفصل الثانى بعنوان أعمال الإمبراطور شارل الخامس فى أوروبا، و الذى احتوى على مبحثين : أولا إسبانيا فى الحروب الإيطالية (1515-1559م)، ثانيا الإمبراطور شارلكان فى مواجهة الحركة الدينية اللوثرية فى ألمانيا.

أما الفصل الثالث المعنون بالمسار العسكرى للإمبراطور شارلكان خارج أوروبا قسمناه إلى ثلاثة مباحث: أولا الصراع الجزائرى الإسباني فى عهد الإمبراطور شارلكان(1519-1531م)، ثانيا حملة الإمبراطور شارلكان على تونس عام 1535م، ثالثا حملة الإمبراطور شارلكان على الجزائر عام 1541م .

اعتمدت في بحثي هذا على قائمة ببليوغرافية باللغتين العربية و الأجنبية في مقدمتها المصادر.

- "مذكرات خير الدين بربروس"، والتي كانت العمود الذي ارتكز عليه الفصل الثالث حيث تعد مصدرا مهما لا يمكن الاستغناء عنه في دراسة العلاقات الجزائرية الإسبانية.

- مرمول كربخال "إفريقيا" بجزئيه الثاني و الثالث والذي استقدت منه كثيرا في الفصل الثالث.

كما اعتمدت على عدة مراجع مهمة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

- Edward Armstrong " The Emperor CharlesV "

والذي اعتمدت عليه في الحياة الاجتماعية للإمبراطور شارلكان.

- Chiratopher Hare " Emperor Charles V 1519 - 1558 "

وهو عبارة عن سيرة ذاتية أغنى بمادته العلمية الفصل الأول في كل مباحثه.

- فاتن محيي حسن " الإمبراطور شارل الخامس و الحياة الاقتصادية في إسبانيا 1500-

1558"، وهو مرجع جد مهم اعتمدت عليه في الفصل الأول خاصة في تمرد الكومونيرو.

- عبد العزيز سليمان نوار محمد جمال الدين " التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى"، و كتاب عمر عبد العزيز عمر " التاريخ الأوروبي و الأمريكي الحديث" وهما مرجعين أثريا بصفة كبيرة الفصل الأول و الثاني خاصة الفصل الثاني، أين فصلا في الحروب الإيطالية و الحركة اللوثرية بشكل كبير.

- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، " التاريخ الأوروبي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر"، و هو مرجع أغنى بمادته العلمية الفصلين الأول و الثاني خاصة الفصل الثاني في مراحل الحروب الإيطالية و موقف الإمبراطور شارلكان من الحركة اللوثرية.

- بسام العسلي " خير الدين بربروس والجهاد في البحر 1470- 1547م"، وأحمد توفيق المدني في كتابه "حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر و إسبانيا 1492- 1972م"،الذين أثريا الفصل الثالث في كل مباحثه وهما مرجعين لا يمكن الاستغناء عنهما في كل من يريد الخوض في تفاصيل العلاقات الجزائرية الإسبانية.

كما لم تخل هذه الدراسة من الاعتماد على بعض الأطروحات الجامعية و التي أثرت البحث بمادتها العلمية على وجه الخصوص في الفصل الثالث، بحيث اعتمدت على أطروحة الماجستير لطاهر تومي المعنونة " العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر والثامن عشر على ضوء المصادر المحلية " و أطروحته في الدكتوراه "علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520 – 1792م" و استفدت منهما في العلاقات الجزائرية الإسبانية في عهد الإمبراطور شارلكان.

و كأني بحث لا يخلو من الصعوبات والعراقل واجهتني بعض الصعوبات، كان أشدها بالنسبة لي عدم القدرة على الحصول على مصادر تتناول شخصية الإمبراطور شارلكان وعدم القدرة على تحميلها، بالرغم من وجود كم هائل منها و التي لا تتوفر إلا بشرائها وهي جد غالية خاصة و أنها مواقع أجنبية، رغم أنني اشتريت كتابين لكنهما لم يكونا كافيين، وهو ما جعلني أجد صعوبة في ضبط الخطة و التحكم في الموضوع خاصة في الفصل الأول.

وآمل أني وفقت في تقديم دراسة تفيد الآخرين، يمكن أن يبنوا عليها مستقبلا أبحاثا أخرى في هذا الموضوع، فقصدي من هذا العمل الاجتهاد و تقديم الإضافة للبحث التاريخي ما تمكنت إلى ذلك سبيلا.

الفصل الأول:

اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

المبحث الأول: الحياة الاجتماعية للإمبراطور شارل الخامس

المبحث الثاني: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني عام 1518م ثم

العرش الإمبراطوري عام 1519م

المبحث الثالث: إصلاحات الإمبراطور شارل الخامس في إسبانيا و تنازله

عن العرش حتى وفاته عام 1558م

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

تمهيد:

سعت إسبانيا لتطوير العلاقة مع الإمبراطورية الرومانية المقدسة فعقد العرش الإسباني معها زيجتين، الأولى بين خوانا القشتالية ابنة فرديناند و إيزابيلا مع فليب الجميل ابن الإمبراطور ماكسميليان الأول و ذلك في عام 1496م، و الثانية بين الابن الوحيد لفرديناند و إيزابيلا وريث العرش الإسباني خوان من مارغريت النمساوية ابنة الإمبراطور ماكسميليان في عام 1497م إلا أنه توفي بعد ستة أشهر من زواجه، و من ثم فإن أمل فرديناند و إيزابيلا بالحصول على وريث للعرش الإسباني من ابنهم خوان قد تلاشى، و بعد وفاة ابنتهم إيزابيلا و من ثم ابنها ميغل فإن العرش الإسباني لا بد أن يكون من نصيب شارل ابن خوانا، فمهدت هذه السلسلة من الجناز السبيل لشارل بأن يكون الوارث للعرش الإسباني، ثم أن يخطوا على أثر جده ماكسميليان ليحمل تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

المبحث الأول: الحياة الاجتماعية للإمبراطور شارل الخامس.(1)

1- المولد:

تزوج فليب لوبو (1478- 1506م)⁽²⁾ الملقب بالوسيم ابن و ولي عهد ماكسيمليان (1459- 1519م)⁽³⁾ إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة⁽⁴⁾ وماري البورغوندية وريثة أراضي الدوق تشارلز ذابولد في بورغندي و هولندا⁽⁵⁾ في عام 1498م من جوانا Joanna (1479- 1555م) ابنة ملكي إسبانيا فرديناند Ferdinand⁽⁶⁾ إيزابيلا

- 1- ورد اسم الإمبراطور شارل الخامس بعدة صيغ : شارل الأول ،شارل الخامس، شارل كوينت، شارلكان، تشارلز،كارلوس، وذلك حسب المصادر والمراجع .
- 2- فليب الأول: الوسيم (1478- 1506م) ابن الإمبراطور ماكسيمليان و ماري أميرة برجنديا التي ورث فليب ممتلكاتها في الأراضي المنخفضة (هولندا و بلجيكا) في عام 1482م، أصبح ملك قشتالة في عام 1506م وتزوج من جوانا ملكة قشتالة، و هو أول عاهل هابسبورج يحكم في إسبانيا. ينظر: محمد شفيق غربال، الموسوعة العربية المسيرة، دار الشعب و مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، القاهرة، 1965م، ص 1352.
- 3- ماكسيمليان الأول: ولد في النمسا عام 1459م و هو الابن الأكبر للإمبراطور فريديك الثالث Frederick3 ، من آل هابسبورج تزوج من ماري mary دوقة بورغندي، وبعد وفاة والده تولى عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام 1493م حتى وفاته في عام 1519م، ينظر: فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس و الحياة الاقتصادية في إسبانيا 1500- 1558م، ط 1، مكتب نور الحسن للطباعة و التنضيد بغداد، 2018م، ص 22.
- 4- الإمبراطورية الرومانية المقدسة: الوحدة السياسية التي ظهرت عند تنويع أوتو الأول في روما عام 962م، و استمرت إلى أن تنازل فرنسيس الثاني عن اللقب الإمبراطوري عام 1806م، في حين تذهب النظرة الأوروبية الغربية إلى أن الإمبراطورية الرومانية التي أسسها أغسطس لم تنته بل توقفت فقط بتنازل آخر إمبراطور روماني عام 476م، و أن شرلمان قد أحيها عام 800 م ثم أعاد أوتو إحيائها عام 962م. ينظر: حسن محمد نصار، الموسوعة العربية المسيرة، ط1، شركة أبناء شريف الأنصار للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت- لبنان، 2010م، ص 418.
- 5- Hare Christopher , Agreat Imperor Charles V (1519– 1558), New York, 1917, p 1.
- 6- فرديناند الخامس: (1452-1516م) ملك أراغون(1489- 1516م) و هو فرديناند الثاني، تزوج إيزابيلا أميرة قشتالة و لما رقيت زوجته من أميرة إلى ملكة على عرش قشتالة عام 1469م أطلق عليه لقب فرديناند الخامس، عرف بالكاثوليكي و هو الذي قضى على بني الأحمر ملوك غرناطة آخر أسرة إسلامية حاكمة في الأندلس عام 1492م. ينظر: منير البعلبكي، معجم أعلام المورد موسوعة المورد، ط 1، إ غ: الدكتور رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1992م، ص 320.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

Isabella⁽¹⁾ و التي لقبتم فيما بعد بالمجنونة⁽²⁾، و تمخض عن هذا الزواج السياسي ولادة شارل الخامس Charles V شمال غرب أمريكا في 24 فيفري 1500م بفرح محمود⁽³⁾، على الساعة الثالثة و النصف صباحا، و قد صادف ميلاده اليوم المخصص لعيد القديس متياس Mathias و هو ما لاحظته جدته الملكة إيزابيلا⁽⁴⁾، و هو الابن الأكبر لفليب الجميل من بين أبنائه و هو بذلك ينتمي إلى عائلة آل هابسبورج House Of Habsburg⁽⁵⁾ النمساوية نسبة إلى جده ماكسيمليان الاول⁽⁶⁾. (أنظر الملحق رقم1)

تمت المعمودية الخاصة بالمولود في كنيسة سان جان في اليوم الثالث عشر بعد ولادته في 7 مارس، و هناك تم اختيار اسم تشالز و إطلاقه عليه تخليدا لذكرى جده الأكبر تشالز

- 1- إيزابيلا الأولى (1451- 1504م): ملكة قشتالة (1474- 1504م) تزوجت من فرديناند الثاني ملك أراغون عام 1469م و بذلك توحدت إسبانيا كلها تقريبا و تعرف بإيزابيلا الكاثوليكية. ينظر: جواد سماحي، "عامل الدين ضمن صراع القوى الفاعلة بالحوض الغربي للبحر المتوسط خلال القرن 10هـ / 16م"، مجلة الواحات للبحوث والدراسات، ط 14، ع 1، الجزائر، 31 - 01 - 2021م، ص 150.
- 2- جان بيرنجيه، فليب كونتامين و آخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العالم، تر: وجيه البعيني، مر: أنطوان أ. الهاشم، ط 1، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1995م، ص 325.
- 3- Win Blackmans, Emperor Charles V 1500- 1558, Translated By Tsola Van Den Hoven – Vasdon, Arnold Publishers, London, 2002. P 13.
- 4- M . Mignet, Charles Quint Son Abdication, Son Séjour Et Sa Mort au Monastere de Yuste, Paultin, Lheureux Et c, Editeurs Rue Richelieu – 60, Paris, 1854, p 27.
- 5- آل هابسبورج House Of Habsburg: الهابسبورج -Habsbourg Hapsburg أو هابيتشبورج Habichtsburg الأسرة التي خرج منها البيت الإمبراطوري في النمسا، اشتق اسم هابسبورج من قلعة هابسبورج (قلعة الصفراء) في سويسرا، في مكان شاهق الارتفاع قرب شينتزنناج Shintznach التي بناها في عام 1020 فيرنر Werner أسقف ستراسبورج و أخو زوجته كونت رادبوت Radbot في أرجو Aargau السويسرية لتي تقع على نهر آر Aar، و كان ابن رادبوت و هو فيرنر الأول يحمل لقب كونت هابسبورج و الذي توفي عام 1200م و كان كونت زيوريخ أمير الألزاس العليا، و قد استولى رودولف الثاني الهابسبورجي الذي توفي عام 1233م على لاوفنبورج Laufenbur و فالنتشيت، و لكن بعد و فاته اقتسم أبنائه ألبرت الرابع و رودولف الثالث الميراث بينهما و لم يلبث رودولف أن أصبح كبير دوقات النمسا ثم عدا الإمبراطور لألمانيا عام 1273م. ينظر: زينب عصمت راشد، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، ج1، دار الفكر العربي، القاهرة، ص 17.
- 6- ماريان حسن مغتاط التميمي، "سياسة الإمبراطور شارل الخامس تجاه أوربا (1516- 1558)", مجلة الفنون والأدب و علوم الإنسانيات و الاجتماع، ع 19، بغداد العراق، جانفي 2018م، ص 49.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

يولد دوق بورغندي، و كانت هذه المعمودية مناسبة لاحتفالات عامة⁽¹⁾ أيناستقبله العالم بفرح و ابتهاج، حملته جدنه مارغريت يورك إلى الكنيسة و كانت عمته مارغرين Margaret النمساوية راعية⁽²⁾.

قام سكان غنيت ببناء ممر خشبي يبلغ ارتفاعه مترا و حدا و عرضه مترين و طوله 700 مترا، ليعدوا موكبا شارك فيه نحو 300 أو 400 من الوجهاء و السادة و الإداريونقضاة المدن و فرسان البلاط و غيرهم من أقاربه⁽³⁾ فنقل إلينا المؤرخون هذه الاحتفالات بوصفها التفصيلي، أين تنافس البلاط و الكنيسة و الشعب في الاختراعات البارعة لإظهار فرحتهم بالمولود الجديد، كما تقدم رجال المراكب في غنيت بسفينة عملاقة مزينة بالمفروشات و المعدات الذهبية و عزف عليها أوركسترا حفلات موسيقية رائعة⁽⁴⁾. تم الإعلان عن جميع ألقاب الأمير الرضيع بصوت مرتفع و تقرر في الأخير أن يطلق عليه اسم دوق لوكسمبورغ⁽⁵⁾ فمنحالإمبراطور ماكسيمليان حفيده لقب دوق لوكسمبورغ و الذي كان يحمله الأباطرة كتشالز الرابع و سيغmond و غيرهم من أباطرة ألمانيا، كما تحصل هذا المولود على وسام الصوف الذهبي في المستقبل ما يدل على عظمة هذا المولود⁽⁶⁾.

أطلق التنين الموجود على برج الجرس النار من الفم و الذيل تكريما لوريث النمسا و بورغوندي من برج القديس نيكولاس إلى برج الجرس، و كانت المشاعل و الفوانيس الورقية تتأرجح بمرح على رواق من الحبال⁽⁷⁾، و لم تشهد مدينة غنيت مثل هذا العرض المذهل من قبل من الأضواء و النيران⁽⁸⁾، فكانت معموديته احتفالا رائعا أظهرت فيه

1- M. Mignet, Op.Cit, p 27 .

2- Edward Armstrong, The Emperor CharlesV, Macmillan And co, Limited St, Martins Street London, 1910, p2.

3- WinBlackmans, Op.Cit, p 13.

4- M. Mignet, Op.Cit, p27.

5- Christopher Hare, Op.Cit, P 4.

6- M. Mignet, Op.Cit, p27.

7- Edward Armstrong, Op.Cit, p2.

8- Win Blackmans, Op.Cit, p 13.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

المدينة أعظم الحماس(1)

2- النشأة:

خلال الخمسة عشر عاما الأولى من حياة تشالز من الممكن فقط الحصول على لمحات عرضية لهذا الصبي(2). فقد أمضى طفولته في الأراضي المنخفضة هولندا مع ثلاثة إخوته اليانور و إزابيلا و ماريان، أما الأخوين فرديناند و كاترين ولدا و ترعرا في مملكة قشتالة(3)، أي أنه نشأ في هولندا ثم انتقل إلى إسبانيا(4)، و تم اتخاذ عمته مارغريت النمساوية كمربية له و كل من تشارلز كروي Charles Of Crog أمير تشيماي و جون جلاميز Jon Glymes كعرايين له(5).

غادرت الملكة خوانا هولندا إلى مملكة قشتالة بعد وفاة زوجها فليب الجميل في عام 1506م، تاركتة شارل الخامس في السادسة من عمره تحت رعاية عمته مارغريت النمساوية و ذلك استجابة لأوامر جده ماكسميليان الأول، فأخذته إلى قصرها في مدينة مالينس Malines عام 1507(6)، فكانت مالينس موطن طفولته و كانت حياته أكثر ضيقا بسبب آداب السلوك الصارمة الخاصة بالبلاط البورغندي(7).

نشأ شارل الخامس تحت رعاية عمته التي رسخت في ذهنه المثال الأرستقراطي في الأراضي المنخفضة هولندا، و إسبانيا(الميل إلى البذخ و الصيد)، و لم تكن له عاصمة

1- Christopher Hare, Op.Cit, p 4.

2- Edward Armstronge, Op.Cit, p 8.

3- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 24-25.

4- يلماز أوزوتا، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عثمان محمد سليمان، مج 1، ط 1، مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول، تركيا، 1988م، ص 266.

5- WinBlackmans, Op.Cit, p 13

6- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 25.

7- Edward Armstrong, Op.Cit, p9.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

محددة لأنه كان دائم التنقل بسبب مقتضيات الحرب في ألمانيا و إيطاليا(1).

أعطاه جده ماكسيمليان شعار حصان خشبي لبراعته المستقبلية، كما كانت له زلاجة على شكل سفينة ذات صواري و حبال و أعلام، كان هذا الصبي مغرما بالحيوانات فقد كان مولعا بوضع عصاه بين القضبان على الدببة و الأسود في الأقفاص الملكية، و تعلم إطلاق النار بمهارة باستخدام القوس(2)، أظهر تشارلز أقصى درجات الحرص في ممارسة جميع التمارين الرجولية و الحربية " ركوب الخيل، المبارزة، المصارعة"، و أصبح ماهرا في وقت مبكر في الرماية، و كان بالكاد في سن العاشرة من عمره عندما أبهج جده من خلال إظهار شغفه برياضته المفضلة و هي الصيد(3)، فمارس مع جده هواية الصيد(4)، و تعلم مع أخته الينور العزف على الكلافيكورد و الآلات الأخرى على عازف الأرغن في الكنيسة(5).

كان مطلع القرن 16م عصرا ذهبيا للتعليم أين تلقى شارل الخامس تعليما دقيقا، تعلم القراءة و الكتابة على يد خوان دي فيرا Juan de Vera الذي سلم مهمة تعليمه في عام 1505م لإسباني آخر و هو العالم لويس فاكا Lwis Vaca(6)، فتولى تعليم الأمير الشاب لمدة ست سنوات حتى بلغ الحادية عشر من عمره(7)، كما عملت عمته إلى جانب تربيته على تعليمه مبادئ الثقافة الفرنسية على أيدي أفضل المعلمين، من بينهم الأرشدوق أدريان Archduke Adrian(8) و الذي اهتم بتعليمه مواد الدين و الأخلاق و القانون، حيث كان

1- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص ص 124 - 323.

2- Edward Armstrong, Op.Cit, p 8.

3- Christopher Hare, Op.Cit, p 21.

4- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 28.

5- Edward Armstrong, Op.Cit, p 9.

6- Ibid, p 10.

7- Christopher Hare, Op.Cit, p 21.

8- الأرشدوق أدريان: من مواليد عام 1419م في بلجيكا، عين معلما خاصا لشرلز عام 1517م، فرافق شارل الخامس إلى إسبانيا، أين تولى عدة مناصب و منحه البابا ليو العاشر في عام 1517م منصب الكاردينال، ثم تولى منصب البابا باسم أدريان السادس في الكنيسة الكاثوليكية، ينظر: فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 25.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

معلما ملتزما دينيا، فقد غرس في عقل تشالز إيماننا قويا بالكاثوليكية وثقة بالعدالة الإلهية(1)، فأصبح متدينا مخلصا للكنيسة الكاثوليكية دين الآباء و الأجداد و هو ما فسره في رده على مارتن لوثر Martin Luther، حيث رأى أنه من واجبه الدفاع عن الكاثوليكية ضد البروتستانتية(2).

كان للمعلم وليم دي كروي لورد شيفر William de Croy Lord Chievres(3) الذي اختارته كذلك عمته مارغريت الفضل في تعليمه كيفية تولي إدارة شؤون البلاد، أين مارس عليه نفوذا كبيرا منذ عام 1509م حتى وفاته عام 1521م، فقد حاول الموازنة بين القيم الفرنسية و الإنجليزية عكس التربية التي تبنتها مارغريت النمساوية المائلة بصفة كبير إلى القيم الفرنسية دون القيم الإنجليزية(4).

يعتبر جان دي سوفاج Jean de Sauvagese شخصية لها تأثيرها على سلوك شارل الخامس، فهو خبير في دراسة معايير و قواعد السلوك الاجتماعي (الإتيكيت Etiquette) في حياة البلاط الملكي، كما برزت شخصيتان إسبانيتان في خدمة شارل الخامس و هما بيدرو رويش دي لاماتا Pedro Ruiz De Lamata و ألفونسو دي رمايتي Alfonso De Remeiti على أنهم مرشدين دينيين(5)، فقد كان تعليمه مركزا على الدين و هذا ما جعله يكون على قناعة قوية بأن الرب سوف يكون حاكمه النهائي يوم القيامة لذلك يجب أن يكون حاكما جيدا(6).

-
- 1- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 25.
 - 2- محمد محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة و حتى الثورة الفرنسية 1500- 1789م، مكتبة زيد للكتب الإلكترونية و المصورة، بغداد، 1981م، ص 228.
 - 3- دي كروي لورد شيفر: من مواليد عام 1458م ببليجكا، أصبح في عام 1509م معلما خاصا لشارل الخامس، قام بجهود كبيرة لإبعاده عن بلاد مارغريت النمساوية، و عمل شارل الخامس على استشارته في القضايا المهمة. ينظر: فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 26.
 - 4- نفسه، ص ص 26 - 27.
 - 5- نفسه، ص ص 27 - 28.
 - 6- نفسه، ص 26.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

في هذه الأثناء و تحت التوجيه الدقيق من عمته مارغريت كان يتدرب بعناية على فن الحكم فكان يحضر كل مجلس، و سافر حول هولندا إلى مدن مختلفة ليتعلم عاداتها و احتياجاتها، في الوقت الذي كان فيه الأولاد الآخرون في مثل عمره منشغلين باللعب فلم يكن لديه طفولة حقيقية(1).

كان شارل الخامس مولعا بالتاريخ و الذي كان هواية العائلة الملكية في البلاط البورغندي(2)، حيث يذكر أن عمته مارغريت دفعت مبالغ باهظة للحصول على كتب و مخطوطات متنوعة حيث تضمنت مجموعتها حوالي 1500 رواية للفروسية و التاريخ وغيرها(3)، أين درس على يد معلمه جاكوب مينيل Jakob Mennel (1426-1526م)(4) و كانت القصص الملحمية تلقى بالمهرجانات التي كانت تعد لهذا الغرض(5)، و لما بلغ سن التاسعة من عمره وضع تحت رعاية المعلم وليام الكروي لتعلمه فنون ركوب الخيل و الرياضة القتالية(6)، فكان ماهرا في الفروسية و مقاربة الفرسان بالسيف(7).

برز شارل الخامس كذلك في الرياضيات ذلك أنها تساعده في الحرب(8)، فلم يتعلمها إلى بعد تجاوزه سن الثلاثين من عمره، معتقدا أنها ضرورية لمهنته القائد العظيم، فأخذ فرانسيسكو بورخا Francisco borja الدروس و نقلها عن ظهر قلب إلى الطالب

1- Christopher Hare, Op.Cit, p 23.

2- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 228.

3- WinBlackmans, Op.Cit,p 15

4- جاكوب مينيل: من مواليد 1460م في النمسا نال شهادة الدكتوراه من جامعة بريغنتس في ألمانيا، عينه ماكسميليان الأول مؤرخا في البلاط الإمبراطوري عام 1506م و طلب منه تدريس شارلكان مادة التاريخ، ينظر: فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 28 - 29.

5- نفسه، ص 28.

6- WinBlackmans, Op.Cit, p 15.

7- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 227.

8- نفسه، ص 228.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

الإمبراطوري، و ذلك تحت إشراف المعلم هنري كونت ناسو henry count of Nossau⁽¹⁾ كما كانت له معرفة بدائية بعلم اللاهوت⁽²⁾.

كان شارل الخامس ثقيل اللسان فلم يتعلم أي لغة بطلاقة⁽³⁾ فقد كانت معرفته باللغة الإيطالية بالكاد أولية، و كانت اللغة الفلمنكية⁽⁴⁾ لغة مسقط رأسه لكنه لم يتعلمها إلى بعد بلوغه سن الثالثة عشر، كما كانت اللغة الفرنسية هي لغته الطبيعية و لكنه لم يكن يتكلمها و لا يكتبها بأية أناقة و إتقان⁽⁵⁾. كان يجهل اللغة الألمانية و الإسبانية⁽⁶⁾ و بعد توليه ملك قشتالة و أراغون لم يكن يعرف سوى بعض الكلمات من اللغة الوطنية⁽⁷⁾، فلم يعرف شيء عن اللغة الإسبانية لمدة عامين بعد توليه منصب ملك إسبانيا، عكس أخويه فرديناند الأول Ferdinand I و كاترين Catharine الذين أتقناها⁽⁸⁾ و كان بالكاد يستطيع قراءة النسخة اللاتينية للإنجيل⁽⁹⁾.

كان شارل الخامس أشقر الشعر كثير التفكير حيويًا ثابتًا لا يتزعزع، و تعتبر هذه الصفة من أبرز صفاته و ذلك من شدة الإيمان العميق و الإرادة القوية⁽¹⁰⁾ فشفته العليا غليظة و ذقنه طويل قبيح⁽¹¹⁾ و أنفه بارز، و هذه الصفات عرفت عن أسرة آل ها بسبورج

1- Edward Armstrong, Op -Cit, p 11.

2- فاتن محيي حسنا لإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 29.

3- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 227.

4- اللغة الفلمنكية: هي لغة سكان الأراضي المنخفضة ببلجيكا و بعض المناطق الهولندية الذين ينتمون إلى العنصر الفلمنكي أو الهولندي بالولادة و الوراثة. ينظر: فاتن محيي حسن، المرجع السابق، ص 28.

5- Edward Armstrong, Op.Cit, p 10.

6- نور الدين حاطوم، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، سورية، 1928م، ص 57.

7- Edward Armstrong, Op.Cit, p 10.

8- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 28.

9- Edward Armstrong, Op.Cit, p 10.

10- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 57.

11- ه. ج. ويلز، موجز تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق المدني حاوير، مر: محمد مأمون نجا، ملتزمة الطبع و النشر مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد و أولاده، مصر، ص 255.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

مع لعثمة في حديثه، و كانت عيناه مصدر قوة لشخصيته يمكن إدراك ذكائه من خلالها(1). (أنظر الملحق رقم 2) كان مهذبا لطيفا في أسلوبه لكنه كان باردا إلى حد ما و متحفظا اتجاه الغرباء(2)، و لم يملك جاذبية أبيه فليب الجميل و هو ما توضحه اللوحات التي رسمت له، حيث رسم الفنان برنارت فان أورلي Bernart Oerley لوحة لشارل الخامس بعد ثلاثة سنوات من توليه العرش الإسباني أين أظهر غطرسته وثقته بنفسه كرجل سياسي له قدرة على إدارة البلاد، و بعد عشرة سنوات رسم الفنان كرسنوفر امبرغير ChristopherAmberger لوحة أظهر فيها نوعا من الغرور(3). كان زعيم النبلاء فيوم دي كروي Laume De Cory حارسه الأكبر منذ 1509م، فلم يكن ينفصل عنه ليلا و نهارا إلا خلال ساعة العشاء(4)، فكان هذا النبيل البرور غندي جنديا و دبلوماسيا فاكتمسب محبة تشارلز من خلال تشجيعه على ممارسة الألعاب الرجولية و التمارين القتالية، كما قام بإقناعه على حضور اجتماعات المجالس و كتابة رسائل دبلوماسية في الوقت الذي كان يتوق فقط للخروج للصيد و إطلاق النار(5)، و كان الكونت بالاتين فريدريك Palatine Frederick أقرب صديق شخصي لتشارلز بالرغم من أنه يكبر تشارلز ب 17 عاما(6).

وهكذا نشأ شارل الخامس أميرا في البلاط البورغندي في مدينة بروكسل، و أصبح يتطلع إلى مستقبله في بورغندي و الأراضي المنخفضة، أما المماليك الإسبانية فبدت له على أنها أراضي لمستقبل أخيه فرديناند الأول(7).

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 29.

2- Christopher Hare, Op.Cit, p 23.

3- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 29.

4- Edward Armstrong, Op.Cit, p p 13 - 14.

5- Christopher Hare, Op.Cit, p 37.

6- Edward Armstrong, Op.Cit, p 14.

7- فاتن محيي حسناالإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 28.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

توفي عند والده و هو في سن السادسة من عمره في عام 1506م أين أطلق عليه أول لقب و هو أرشيدوق بورغندي و الأراضي المنخفضة، و في عام 1515م تسلم حكم دوقية بورغندي في مدينة بروكسل، و في نفس السنة تولى منصب أرشيدوق النمسا و كونت الفلاندرز في الأراضي المنخفضة(1).

تزوج شارل الخامس من إيزابيلا Isabella البرتغالية (1539- 1503م) ابنة إمانويل الأول ملك البرتغال، و أنجبت له خمسة أبناء و ثلاث بنات مارغريت بارما (1522- 1586م) Margaret Of Parma و ماري Mary (1528- 1603م) و جوان Juan (1535- 1573م)، و ولدان فليب الثاني Philip (1527- 1598) و دون جوان Don Juan (1547- 1578م)(2).

كان عالمه حافلا بالشخصيات الفنية القومية إذ كان عصره عصر ملوك شبان أذكيا، منهم فرانسوا الأول(3) الذي تولى عرش فرنسا في 1515م و عمره 21 سنة، و كذا هنري الثامن(4) الذي اعتلى عرش إنجلترا عام 1509م في سن الثامنة عشر، و سليمان القانوني(5) بتركيا في عام 1520م، و كلهم ملوك عظماء و هو ما يظهر في مدة تولي كل منهم حكم بلاده(6).

1- فاتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 30 - 31.

2- Win Blackmans, Op.Cit, p 1.

3- فرانسوا الأول (1494- 1547م): ملك فرنسا (1515- 1547م)، أحدث تغييرات جذرية في بنية بلاده الاقتصادية و الاجتماعية في مرحلة تميزت بتسارع الخطى الفرنسية للانتقال من القرون الوسطى إلى العصر الحديث، قضى أكبر فترة حكمه يحاول الاستيلاء على إيطاليا و ذلك في مواجهة الإمبراطور شارلكان. ينظر: منير البعلبكي، المرجع السابق، ص 317.

4- هنري الثامن (1491- 1547م): ملك إنجلترا (1509- 1547م) و هو ابن هنري السابع، ازدهرت إنجلترا داخليا في عهده، انضم إلى الإمبراطور شارلكان في عام 1522م في حربه ضد فرنسا، منحه البابا لقب حامي الدين من أجل مقال ضد لوثر. ينظر: محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص 1908.

5- سليمان القانوني: من مواليد عام 1494م، تولى الخلافة في سنة 1520م، و أول ما جلس على الكرسي نفي الزنادقة المبتدعين في الدين، و هو عاشر سلاطين الدولة العثمانية و في عهده بلغت الدولة العثمانية أوج قوتها، لقب بسليمان العظيم و توفي سنة 1566م. ينظر: حليم إبراهيم بك، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1988م، ص 87.

6- ه. ج. و يلز، المرجع السابق، ص 255.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

تحصل شارل الخامس في عام 1554م على مرسوم من البابا يوليوس الثالث يسمح له التحلة من الصوم و إباحة الإفطار له في الصباح الباكر، و عرف عنه أنه في وقت تناوله طعامه يصغى إلى من يقرأ عليه ثم يعلق على ما يسمح، و كثيرا ما كان يسلي نفسه باللعب الميكانيكية و الإصغاء إلى الموسيقى أو العضات الدينية و كان شديد الاهتمام بالطقوس⁽¹⁾.

المبحث الثاني: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني عام 1518م ثم العرش الإمبراطوري عام 1519م:

1- شارل كان ملك إسبانيا 1518م ثم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة 1519م:

أعطت وفاة الملك فرديناند ملك أراغون في 23 فيفري 1516م الحق لتشارلز في الحصول على تيجان أراغون و نابولي⁽²⁾، فتم الإعلان في مدينة بروكسل بأن الأمير شارل حاكم مشترك مع والدته خوانا في حكم قشتالة و أراغون⁽³⁾ فنتج عن ذلك نزاعات داخلية حاول خلالها النبلاء السيطرة على المدن التي قاومتهم بسبب مجيء الفلمنكيين إلى إسبانيا و رفض بعض الأهالي لهم، ففضل الكثير من الألمان تنويع الأمير فرديناند الأول لأنه ولد و ترعرع في إسبانيا و هو ما أدى إلى انقسام بين الإسبان، و لولا جهود الكردينال فرانسيسكو خيمينيس دي ثيسيرونFrancisco Jimenez de Cilsnerus⁽⁴⁾ لوقعت حرب أهلية، حيث قام بإثارة مخاوف النبلاء المرتديين و إفشال المؤامرات المؤيدة للأمير فرديناند الأول⁽⁵⁾.

التقى الأمير شارل الخامس بأمه و أخته كاترين في مدينة ثورد يسيلياس Tordesilles، أين قرر إنشاء بلاط صغير لأمه لتحيا بحياة ملكة، و قد تحصل منها على

1- ه. ج. و يلز، المرجع السابق، ص 260.

2- Christopher Hare, Op.Cit, p 47.

3- Ibid, p 55.

4- فرانسيسكو خيمينيس: راهب كاثوليكي، كان أسقف كنيسة طليطلة، عرف بغلوه في التحرشات على سواحل الشمال الإفريقي التي روج لها رغبة جامعة في نصره الصليبية. ينظر: جواد سماحي، المرجع السابق، ص 150.

5- فانتن محيي حسن الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 33 - 34.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

تأييد لحقوقه الملكية⁽¹⁾ و تم تتويجه ملكا على العرش الإسباني في 20 فيفري 1518م باسم شارل الأول⁽²⁾، في بلد الوليد بحضور الكورتيس ثم منحته والدته إعانة مالية قدرها 6000000 دوقات⁽³⁾

التحق الإمبراطور شارلكان بإسبانيا بمجرد أن وصلت إليه أخبار وفاة الإمبراطور ماكسيميليان في 11 جانفي 1519م، و الذي عمل جاهدا على انتخاب حفيده ملكا على الرومان و أظهر له الناخبين أنه بدون أموال كافية لن يحقق هدفه، فكان تشارلز يرغب بجدية في التطلع إلى عرش جده⁽⁴⁾.

تطلع شارل الخامس للحصول على التاج الإمبراطوري رغبة منه في التفوق على سائر الحكام الأوربيين، و بما أن هذا التاج كان انتخابيا فلم يتمكن ماكسيميليان خلال حياته على انتخاب خلف له، فحدثت أزمة سياسية و دبلوماسية في أوروبا إثر وفاته لأن عملية الانتخاب كانت مفتوحة⁽⁵⁾، و مع ظهور الاتجاه الجديد الذي يقر بأنه لا يوجد قانون أو دستور يجعل من يشغل هذا المنصب من أصل جرمان⁽⁶⁾، دفع بثلاثة ملوك شبان أذكفاء و طموحين كانوا يمثلون كل ما كان مهما من السياسية الأوروبية آنذاك على هذا الجزء الهائل من أوروبا المسمى بالإمبراطورية الرومانية المقدسة، للترشح للتاج الإمبراطوري و هو ما تم طرحه إن جاز التعبير للبيع بالمزاد بعد وفاة ماكسيميليان الأول، و المتمثلين في كل من حفيده شاركان ملك إسبانيا و نابولي الذي امتدت هيمنته إلى هولندا و الممتلكات

1- فاتن محيي حسناالإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 35.

2- ماريا حسن مغطاظ التميمي، المرجع السابق، ص 33.

3- Christopher Hare, Op.Cit, p 55.

4- Otto Von Habsburg, Charles V, Translated From The French BY Michael Roos Burlingame Public Library, Cali Fornia, 2013, p p75 - 76 .

5- جان بير نجيه، المرجع السابق، ص 327.

6- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوروبي و الأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م، ص 118.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

الإسبانية في العالم الجديد، و الملك الفرنسي فرانسوا الأول و هنري الثامن ملك إنجلترا(1)، لكن هذا الأخير انسحب و ترك المنافسة محصورة بين شارل الأول و فرانسوا الأول(2)، فدخل هذا الأخير إلى الميدان بتوقعات عالية بسبب ثروته الهائلة و دعم البابا(3).

كان شارل الخامس من أقوى ملوك أوروبا فهو يحكم شعب قوي و محارب و يمتلك ثروة طائلة، و التي كان يدخرها من استغلال التجارة و الصناعة و غيرها من الممتلكات الإسبانية في العالم الجديد، و بالرغم من أن تعيين الإمبراطور يتم بالانتخاب فإنه من الناحية العملية كان هذا المنصب وراثيا، و بحصول شارل كان على هذا المنصب يصبح وريثا لجميع ممتلكات أسرة آل هابسبورج (أنظر الملحق رقم 3)، و حاملا للقب إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة(4).

من المعروف أن الحلف هو الذي ينتخب ملك الرومانيين قبل تتويجه إمبراطورا من قبل البابا، و الذي يجري حسب مرسوم شارل الرابع المرسوم الذهبي (The Golden Bill) 1356م، و يعد هذا الانتخاب امتياز من امتيازات أمراء الإمبراطورية و عددهم سبعة (دوق ساكس، ملك بوهيميا، مارغراف بيراند بورغ، كونت بالاتينا الراين، مطران مانيس مطران كولونيا، مطران تريف)، و قد سعى الإمبراطور ماكسيمليان من قبل الحفاظ على التاج الإمبراطوري داخل أسرته و يؤمن لحفيده العرش الإمبراطوري من بعده، و قد كان البعض يفضل أن يتولى هذا المنصب دوق ساكس فريديريك، والذي كان على فرانسوا الأول أن يدعمه و يقسم ألمانيا إلى قسمين مما يجعلها ضيقة لكنه فعل العكس و رشح

1- D.B. Wyndham Lewis , Charles - Quint Empereur D Occident (1500-1558), Traduit De Langlais Par S. Compaux, BiblioTheEque Historique Des Editions Boulevard Saint-Germain، Paris, 1932, P 9.

2- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 118.

3- Christopher Hare, Op.Cit, p 57.

4- عبد الحميد البطريق، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م، ص 69.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

نفسه(1).

وقف الألمان في حيرة بين المرشحين للتاج الإمبراطوري، فباختيار ملك فرنسا فإنهم يخشون فقدان الحريات الجرمانية و إصلاح حكومة الإمبراطورية المقدسة، و باختيار ملك إسبانيا فيخشون تحقيق اكتمال هذه الملكية الواسعة الأطراف، كما أنهما لم يكونا يعرفان اللغة الألمانية، و لكن من حظ شارل كان أنه حفيد ماكسيمليان و أنه من أسرة ألمانية(2).

كانت عملية الانتخابات قضية مساومة مالية، و هو ما أكده المؤرخ ميشله حيث و ضح بأن الانتخاب الإمبراطوري عام 1519م كانت مسألة مالية، ضف إلى ذلك تلك الوثائق الحساسة التي نبشت و تناولها النقاد أثبتت بأدلة مقنعة بأن الطرفين اعتمدا الرشوة، و لعل ما أدى إلى إقصاء فرانسوا الأول هو تلك الجهود التي بذلتها عمته مارغريت النمساوية، و كذا أصحاب المصاريف الألمانين خاصة آل فوجر و آل فيلزر الذين تولوا مهمة تمويل حملة شارل كان بكل جرأة و خداع(3).

تعتبر عملية انتخاب عام 1519م عملية فساد مبتذلة، أين ظهر ضعف المؤسسات و أصبح الأمراء السبعة سلعة معروضة للبيع، في الوقت الذي كان فيه المرشحان يتسابقان و على استعداد تام لتسديد الثمن، و نتلمس مساعدة آل فوجر لشارل كان عند كتابة المصرفي يعقوب فوجر إليه قائلاً: " معلوم لدى الجميع و واضح لهم كوضوح النهار أن جلالتم الإمبراطورية قد لا تتمكن من دوني الحصول على التاج الروماني" و قد كان الناخبون يثقون ثقة عمياء بمعرف فوجر(4)، و لحسن الحظ تقدم هؤلاء المصرفيون العظماء بقرض قدره 5000 ألف فلورين(5).

1- نور الدين حطوم، المرجع السابق، ص ص 55- 56.

2- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص ص 327- 328.

3- نور الدين حطوم، المرجع السابق، ص ص 56- 67.

4- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص 328.

5- Christopher Hare, Op.Cit, p 58.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

أقسم فرانسوا الأول باندفاع أنه سينفق ثلاثة ملايين ذهب إذا كان ذلك ضروريا للحصول على تاج الإمبراطورية، و عرض على أحد الناخبين الكنسيين وهو مايتز مبلغ 120.000 فلورين⁽¹⁾(2) في حين كلفت هذه العملية شارلكان حوالي مليون فلورين و هو مبلغ ضخم جدا، و بفضل جهود عمته تحصل على مساعدة مالية من مصرف أنقرز، كما مؤل مصرفي أوسبورغ هذه العملية بنسبة 80% و جاءت 15% من جنوة و 5% من فلورنسا، كما كان لابد من دفع نصف مليون فلورين لشراء أصوات الناخبين السبعة و الوحيد الذي لم يأخذ شيئا هو براند بورغ لأنه كان في مفاوضات مع فرنسا، و كلف صوت ألبير دو براند بورغ 113000 فلورين، و صوت الناخب البلاطي 148000 و قبضت رابطة سواب مبلغ 171 ألف فلورين للتخلي عن أولريخ صاحب ورتمبورغ و الاعتراف بسلطة شارلكان المطلقة⁽³⁾.

أثناء الانتخابات الإمبراطورية و عد فرانسوا بإعادة الأمن و النظام إلى ألمانيا التي سادت فيها الفوضى و الاضطرابات، إلا أنه في الواقع كان يهتم بمملكته في فرنسا فقط في حالة انتخابه، و لم يكن الناخبين الألمان يريدون سيادة القانون بقدر اهتمامهم بالمحافظة على استقلالهم و عدم التدخل في شؤونهم، بينما كان هنري الثامن غير مهتم بشكل جدي في مسعاه و قد سعى المرشحين للحصول على تأييده، و في المقابل أعلن البابا ليو العاشر تأييده لفرانسوا الأول، و هو الأمر الذي أغضب الناخبين الذين كانوا ضد أي تدخل للبابا، و لربما ذلك أضر بمصلحة فرانسوا الأول، و على الرغم أن أصل كل الناخبين من ألمانيا فضلوا مصالحهم الشخصية على المصلحة العامة، فضلا عن تلك الرشاوي التي ساهمت بدور فعال لصالح شارلكان⁽⁴⁾.

1- فلورين: عملة نقدية ذهبية تساوي 265 مرابطي أي تساوي 6 شلنات بالباوند الأسترليني .

2- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, p 21.

3- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص ص 328 - 329.

4- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص ص 225 - 226.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

أمام رغبة الشعب الألماني في عدم تولي هذا المنصب من أجنبي خاصة و أن تولي فرانسوا الأول هذا المنصب فإنه سوف يقوي مركزه في إيطاليا، أما هنري الثامن ملك إنجلترا لم يكن ذات قدرة لإدارة هذا المنصب⁽¹⁾. اقترح البابا ليو العاشر و فرانسوا الأول على أمير سكسونيا انتخاب فرانسوا الأول أو ترشيح نفسه، و هو الأمر الذي رفضه رفضا قاطعا فقام بترشيح شارل الخامس و أيده بقية الناخبين⁽²⁾، فكان في نظرهم أن ملك إسبانيا شارل الخامس هو أنسب المرشحين للتاج الإمبراطوري و لأنه حفيد الإمبراطور ماكسيميليان، و هو أقوى شخصية في أوروبا آنذاك و هو القادر على تحقيق الزعامة للشعب الألماني في أوروبا⁽³⁾.

اجتمع الأمراء الناخبون في مدينة فرانك فورت، و بعد طول المداولات و المساومات تم الاتفاق في 5 جويلية 1519م على انتخاب ملك إسبانيا شارل لكان إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس، و كان هذا الاختيار قلبا لموازن القوى الأوروبية حيث أنه جمع لنفسه ملك إسبانيا و النمسا، و مملكة نابولي و جمهورية جنوا و فلورنسا، و جزيرتي مينروقا و صقلية، و إقليم وهران بالجزائر و بلدان أمريكا في العالم الجديد⁽⁴⁾، بالإضافة لإقليم برجندي على الحدود الفرنسية و ألمانيا⁽⁵⁾، و تم تنويجه رسميا في مدينة إكس لاشابيل عاصمة شارلمان في 23 أكتوبر 1520م، و بعد أن تمت عملية انتخابه راسله مستشاره كاتينارا Cattinara قائلا: "سيدي إن الله رؤوف معك في العالم المسيحي فوق الأمراء و الملوك إلى سلطة لم يحلم بها أحد منذ عهد جدك الأكبر شارلمان، فقد وضعك

- 1- عبد العزيز سليمان نوار، محمود محمد جمال الدين، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م، ص 96.
- 2- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 226.
- 3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 96.
- 4- حمزة إسحاق زيتوني، " استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالجزائر إثر الغزو الإسباني لمملكته و الجزائر تلبى 1543م، " مجلة البدر "، بشار، 10 - 10 - 2018، ص 1225.
- 5- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 96.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

في منصب تحقق بواسطة المملكة العالمية، و توحيد العالم المسيحي تحت ظل راع واحد⁽¹⁾، و لم يتم التتويج الإمبراطوري إلا بعد عشر سنوات في بولونيا من قبل البابا، و بذلك منح لشارلكان مجد الإمبراطور الروماني الحقيقي و نفوذه و تطلعاته كزعيم للعالم المسيحي⁽²⁾، ثم غادر إيطاليا في أبريل 1530م و هو آخر إمبراطور يتم تتويجه من طرف البابا⁽³⁾.

2- تمرد الكومونير و على اعتلاء شارلكان العرش الإمبراطوري:

غادر تشالز إسبانيا متوجها إلى ألمانيا لاستلام التاج الإمبراطوري بعد حصوله على مساعدة مالية كبيرة من كورتيس كورونا⁽⁴⁾، أدى إلى استياء كبير في مملكة قشتالة ضد التاج الإمبراطوري، و هو ما أثار السخط في الأوساط و الذي انتهى بالتمرد الفعلي و المعارضة ضد الإمبراطور⁽⁵⁾، و بعد عام واحد غادر شارل الخامس برشلونة إلى مملكة قشتالة و طلب من أعضاء برلمانها عقد اجتماع لهم في مدينة سانتياغو Santiago في 11 مارس 1520م لمنحه إعانة مالية جديدة غير أن ممثلي مدينة طليطلة و المدن الأخرى لم يحضروا الاجتماع و هو ما دفع بكورتيس قشتالة عدم منحه أي إعانة مالية، فطلب شارل الخامس عقد اجتماع آخر في 10 أبريل 1520م في مدينة كورونيا coruna لمناقشة طلباته⁽⁶⁾، فوضع الكورتيس ثلاثة شروط مقابل تعاونه مع الملك و هي ألا يغادر إسبانيا و ألا يصدر الذهب و الفضة و أن لا يعين أي أجنبي في مناصب عالية⁽⁷⁾، و أمام فشل شارلكان في التأثير على أغلبية المدن لمنحه إعانة مالية لجأ إلى الرشاوي، و هو ما جعل

1- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص ص 227- 228.

2- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص 329.

3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 7.

4- Otto Von Habsburg, Op.Cit, p 236.

5- Edward Armstrong, Op.Cit, p 88.

6- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 42- 43.

7- Otto Von Habsburg, Op.Cit, p 76.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

بعض النبلاء يتخلون عن معارضتهم لكن كورتيس قشتالة رفض منحه المال و هو ما دفعه إلى مغادرة إسبانيا في 20 ماي 1520م⁽¹⁾.

أدت مغادرة شارل الخامس إسبانيا إلى بداية تمرد الكومونيرو⁽²⁾ (1520 - 2521م)، فشاركت بقية الطبقة الكادحة في حوض نهري دوايرو Duero و تاكوس Tagus، و النبلاء و كبار الإقطاعيين الذين حرّمهم التاج من أمجادهم السابقة، و لعل سبب شكواهم أنه قبل التاج الإمبراطوري دون استشارة برلمانهم⁽³⁾، كما أنه اصطحب معه مجموعة من الأتباع الفلمنكيين، و أنه تحصل على أموال كثيرة ثم غادر إسبانيا إلى الشمال تاركاً إياها تحت رحمة أدريان الهولندي المكروه الذي كان يجهل أمور البلاد و لغتها⁽⁴⁾، و الذي ترأس المجلس الملكي الذي شكله الإمبراطور قبل مغادرته إسبانيا، و الذي كانت مؤسساته الإدارية و الدينية يشرف عليها أجنب فرضوا على سكان قشتالة ضرائب عالية في الوقت الذي عرفت فيه صناعة الأنسجة القشتالية حالة تراجع منذ بداية القرن 16 لنقص التمويل و اليد العاملة⁽⁵⁾.

ضف إلى ذلك تصدير الصوف الخام خارج إسبانيا و الذي كان لصالح التجار المسؤولين على تصديره، إضافة إلى التاج الذي كان يفرض الضرائب عليه و كذا الأجنب الذين يشترونه، و هو الذي جعل الصناع المحليين و أصحاب الحرف اليدوية يعانون

- 1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 43.
- 2- الكومونيرو: مصطلح إسباني أطلق على الرجال الذين حفزوا الناس على التمرد على شارل الخامس في عام (1520 - 1521م)، تعبيراً عن رفضهم لاعتلائه العرش الإسباني، و أطلق عليهم هذا المصطلح لأنهم شكّلوا كومونيداد Comunidad و تعني مدينة ذات حكم ذاتي (تقسيم أراضي صغيرة يتم تشكيلها بعد الثورة لتصبح نواة لمدينة حرة مستقلة عن الحكومة أو الملك)، و أن سكان تلك المدينة الحرة يطلق عليهم كومونيرو أي الساكن في الكومونيداد المشار إليه سابقاً. ينظر: فاتن محيي حسن، "التنظيمات الإدارية و الدينية و العسكرية في إسبانيا خلال حكم الإمبراطور شارل الخامس،" مجلة الآداب، م 1، ع 127، المستنصرية، 2018م، ص 256.
- 3- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 44.
- 4- فيشر هربرت، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، تر: زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مر: أحمد عزت عبد الكريم، ط 3، دار المعارف، مصر، 1119م، ص 124.
- 5- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 44 - 45.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

الضعف أين وقفوا عاجزين لمنع تصدير الصوف الخام و ذلك حماية لصناعة الأنسجة القشتالية، فتطلعوا إلى شارل الخامس لمساعدتهم لكنه لم يحقق لهم ذلك لمصالح السلطة الملكية بسبب الرسوم الجمركية التي كانت تجتنيها من تصدير الصوف الخام، و هو ما دفع بهؤلاء الصناع و أصحاب الحرف للانضمام إلى المتمردين⁽¹⁾.

بدأ تمرد الكومونيرو في مدينة طليطلة في 21 ماي 1520م بقيادة بيدرو لاسودري لابيكا Pedrolaso De Lavego (1494-1553م)، و خوان دي باديليا Juon De Paila (1460-1521م) و زوجته ماريبا باجيكو Maria Pacheco، و تمكن المتمردون بقيادتهم من طرد حاكم طليطلة و إنشاء ما يعرف بالكومونيدا، تم امتد هذا التمرد إلى مدن وسط و شرق مملكة قشتالة، تم توسع إلى مدينة ثامورا Zamora بقيادة الأسقف أنتونيو دي أكونيا Antonio De Acuna، و تمكن هؤلاء المتمردون بقيادة بيدرو مالدونادو Pedro Maldona من طرد أعضاء الكورتيس، ثم أعلنوا انضمامهم إلى الكومونيداد ثم امتد تأثير التمرد إلى مدن القلعة alcala و تورو Torco و كوادا الأخارا مدينة وادي الحجارة Guadalajara و سوريا soria و ابيللا Avila و مربية Murcia و كونيكا Cuenca و مدريد Madrid و أجزاء من بورغوس bugos في حين حافظت مدن سيمانكاس Simancas و لا كورونيا La Caruna و غرناطة و قرطبة و اشبيلية و جيان على ولائها للتاج و ذلك لنفوذ وسلطة كبار النبلاء و الإقطاعيين⁽²⁾.

حدثت بين القوات الملكية و المتمردين مواجهات عنيفة، و في 15 أوت انضمت أربعة عشر مدينة من أصل ثمانية عشر ثم تمثيلها في كورتيس قشتالة إلى الخونتا The Jent، و هو المجلس السياسي المسؤول عن تنظيم شؤون الحكومة بعد نجاح انتفاضتهم، و في 22 أوت 1520م سيطر أعضاء المجلس على المراكز الرئيسية في مدينة بلد الوليد المنضمة إلى الثوار و شكلوا حكومة منظمة، و حاول أعضاء المجلس إقناع الملكة خوانا على توقيع

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 45.

2- نفسه، ص ص 46-47.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

أوراق تشجب المتمردين لكنها رفضت فانضم سكان ثورد يسيلياس إلى التكومونير و(1). كانت هذه الأحداث تدل على الانتصارات التي حققها الكومونير، لكنها سرعان ما تراجعت بعد تحرر شارل الخامس من تأثير اللورد وليم دي كروي، فعين دون أنييكو دي بيلاسكو Don Ligo de Velasco و الأدميرال دون فادريكو Don Fodrique Emriques وهما من نبلاء قشتالة أعضاء في مجلس الوصاية، و هو ما أدى إلى انشقاق في صفوف الثوار إذ تحول عدد من النبلاء إلى الملك، و أمام هذه الانشقاقات و تخلي كبار النبلاء عنهم سهل على القوات الملكية استرجاع كافة المدن(2).

وذلك بعد أن هزموا أمام قوات الإمبراطور بالتعاون مع نبلاء قشتالة في ساحة فلاجوس Vilagos في 23 أبريل 1521م، وفي عام 1522م عاد الإمبراطور شارلكان إلى إسبانيا مع قوة من المدفعية و 3000 فارس ألماني أين وجد الشعب هناك على استعداد لطاعته(3).

المبحث الثالث: إصلاحات الإمبراطور شارل الخامس في إسبانيا و تنازله عن العرش حتى وفاته عام 1558م:

1- إصلاحات الإمبراطور شارلكان بعد توليه الحكم في إسبانيا:

تمتعت مملكة قشتالة بسلام و ازدهار متصاعد، و ذلك بعد قمع تمرد الكومونير و عام 1521م خلال حكم الإمبراطور شارلكان، و الذي استقر في قصر إيزيكوث Enriquez بمدينة بلد الوليد ما بين (1522- 1529م)، فقام بتعزيز سلطته و فرض الحكم المطلق، و أصبح الإسبان يحتكرون المناصب العليا في إسبانيا و في أنحاء الإمبراطورية، كما بذل الإمبراطور جهود كبيرة لتعليم اللغة الإسبانية(4).

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 48 - 49.

2- نفسه، ص ص 50 - 52.

3- فيشر هيربرت، المرجع السابق، ص 134.

4- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص ص 57 - 58.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

كان لزوجاه عام 1526م من ابنة خالته إيزابيلا البرتغالية، و تعزيز المكانة الاجتماعية للأيدالكو الذين ساندوه في تصديه لتمرد الكومونيرو، بمنحهم مناصب مهمة في المجالس البلدية في إسبانيا أثره في جعل الإسبان يعترفون بسلطته علنا(1).

تعد المدة المحصورة بين عامي (1522-1529م) ذات أهمية بالنسبة لإسبانيا، إذ عمل شارل الخامس على إصلاح شؤون البلاط و إعادة تنظيم مملكته المترامية الأطراف، و ذلك بالاعتماد على عدة مجالس استشارية و إدارية مرتبطة بأقسام المملكة و من بينهم قشتالة و أراغون، كما كان لمجلس الدولة الدور الفعال في تقديم النصائح و الإرشادات للملك في القضايا المهمة، أما مجلس قشتالة نشأ من المجلس الملكي الذي يعود للعصور الوسطى، فقام بإصلاحات في المجلس فاختص موظفيه من الطبقة العليا الحاكمة و رجال القانون، و أبعاد الطبقة الأرستقراطية و قام بتقليل عدد أعضائه إلى ثمانية أعضاء، أما مجلس أراغون أصبح مجلس بيروقراطي حديث(2).

كانت مداولات هذه المجالس تقدم للحكومة على شكل تقارير لم يكن التاج ملزما بقبولها، و نظرا لاتساع مساحة أراضي الإمبراطورية كان الإمبراطور يطلب دائما استدعاء أعضاء الكورتسات لمناقشة القضايا المختلفة(3).

فضل شارل كان تعيين الأقارب و الأصدقاء في المناصب و الترقية(4)، فقد جعل زوجته إيزابيلا البرتغالية وصية على العرش الإسباني عند مغادرته البلاد و ذلك بمساعدة الكردينال تابيرا tanera (1472-1546م) رئيس أساقفة مدينة طليطلة، و لعل ما صعب في إقامة نظام إداري حديث هو البلاط الملكي الذي كان في انتقال مستمر، فلم تكن له عاصمة ثابتة رغم أن مدينة بلد الوليد اتخذت عاصمة إدارية له، فعمل المستشار فرانسيسكو

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 58.

2- فاتن محيي حسن، التنظيمات الإدارية...، المرجع السابق، ص 240.

3- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 61.

4- فاتن محيي حسن، التنظيمات الإدارية...، المرجع السابق، ص 241.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

دي لوس كوبوس على تحسين الآلية الإدارية الإسبانية فأنشأ أرشيف لحفظ الوثائق الرسمية و كانت قلعة سيمانكاس مركزا لحفظها و بذلك أصبح لإسبانيا أرشيف خاص بها(1).

واصل الإمبراطور شارلكان إصلاحاته فقام بتحويل النظم العسكرية(الفرسان) إلى مؤسسات حكومية، أين حولها بالتدرج إلى مدن راعية و ملكية و التي استمرت بدفع الضرائب الملكية، و نتيجة للسياسة التي اتخذها كوبوس و تابيرا أصبح مستقبل هذه النظم بيد شارل الخامس، و في عام 1523م وقع البابا أدريان السادس على قرار الإدماج الأبدي للنظم العسكرية بالتاج، مما أتاح للإمبراطور السيطرة على أساس غلال الحصاد (الغلة الزراعية) من أراضي النظم العسكرية، ثم قام الإمبراطور بنقل أراضي هذه النظم و ممتلكاتها إلى مستثمرين غير حكوميين للحصول على واردات بيعها، ثم بدأ ببيعها للمستثمرين بسبب ارتفاع مبلغ الفائدة على القروض و معدلات تبادل العملات، ثم أصبح بيع هذه الأراضي في عام 1537م آلية للحصول على واردات دائمة لشارل الخامس(2).

كان القرن 16م أعظم فترة في تاريخ الجيش الإسباني، فالإصلاحات التي قام بها القائد كوردوبا Cordova أجننت ثمارها في فترة اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني. كما قام فرانسيسكو خيمينيث بتطوير مبدأ الجندي للتطوع في الجيش عام 1516م، ثم أن أكثر الحروب التي خاضها شارل الخامس اعتمد فيها على المرتزقة من ألمانيا و إيطاليا، فلم يطرأ على التكنيك و الإستراتيجية العسكرية تعديلات كبيرة خلال فترة حكمه، غير أنه قام بتطوير فنون حفر الخنادق و بناء الحصينات(3).

أما فيما يخص البحرية فقد شهدت فترة حكمه تغيرات مهمة فيما يخص بناء السفن كزيادة حجمها و حمل المدافع عليها، كما أن تلك السفن الضخمة التي تحركها المجاديف

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 60.

2- فاتن محيي حسن، التنظيمات الإدارية...، المرجع السابق، ص ص 252-253.

3- مارييا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 34.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

و التي فقدت أهميتها أمام السفن الخفيفة عادت و احتلت مكانتها و بنيت بحجم أكبر من السابق، و تم بناء سفن ضخمة خصصت للرحلات البحرية إلى جزر الهند الغربية، و لعل أبرز شخصية كان لها أثرها في التطور البحري لإسبانيا هو البارودي باثان Bazan وابنه الذي تكهن بأن سفن المستقبل سوف تكون شراعية، و قام بصورة صحيحة بتقدير تأثيرات اكتشاف العالم الجديد(الأمريكيين)، و بالاعتماد على القائد أندريا دوريا Andrei Doria (1466-1560م)⁽¹⁾ في البحر المتوسط، توسعت النطاقات البحرية لموانئ إشبيلية Seilla و كانتابريا Cantabri و إستورياس Asturias و غاليسيا Calicia، و زودت بالأساطيل لنقل الجيوش الإسبانية للأراضي المنخفضة و المدن التابعة لمناطق البحرية الإسبانية⁽²⁾.

شهدت فترة حكم الإمبراطور شارل كان تطورا كبيرا في فنون الحرب و السلاح و الخطط الحربية، و هو ما أدى إلى ظهور مصطلح الثورة في المجال العسكري، نتيجة تزايد الجيوش و الأسلحة و بناء التحصينات القوية للتصدي لقذائف المدافع، و كانت مملكة قشتالة المصدر الرئيسي لثروته عن طريقها تدفقت كنوز العالم الجديد كما اعتمد على واردات الأراضي المنخفضة، فيما شكلت ممتلكاته في إيطاليا و نابولي و ميلانوا موردا هاما لخزينة التاج⁽³⁾.

اعتمد الإمبراطور شارل كان على الوصي أدريان عام 1523م و على مسؤولين ذو نفوذ في بيروقراطية رجال الكنائس لتنفيذ سياسة مصادرة ممتلكات الكنائس و جمع الأموال،

1- أندريا دوريا: أصله من جنوة و لد في أونيفليا قرب سان ريمو في 30 نوفمبر 1466م، و توفي 25 نوفمبر 1560م، كان أبوه رئيس جيش البابا إينوسانت الثامن، حارب في جيش فرديناند و ألفونس الثاني ملكي إسبانيا، و لما عزم في 1505م على إخراج الفرنسيين من جزيرته قربه فرانسوا الأول إليه، غير أنه سئم من تصرفات حاشية الملك تجاهه، فوقع خلاف مع فرانسوا فعزم الملك على سجنه، و لما علم بالمؤامرة فر و لجأ إلى شارل الخامس الذي عينه على رأس الأرمادة الإسبانية و أخذ يستعمله ضد فرانسوا الأول، كما استعمله في محاربة العثمانيين. ينظر: عبد القادر فكايير، "الحملة الإسبانية على مدينة شرشال و فشلها 1531م"، مجلة دفاتر البحوث العلمية، م 1، ع 2، خميس مليانة، 8-5-2013م، ص 264.

2- مارييا حسن مغتاط التميمي، المرجع السابق، ص ص 34-35.

3- فاتن محيي حسن، التنظيمات الإدارية...، المرجع السابق، ص 255.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

و حاول السيطرة على المؤسسات الدينية و الآليات المالية، فوضع عملاء له في مناصب الأسقفيات الإسبانية و فرض و استحدث ضرائب على المجامع الكنسية، و طرح شارل كان نظاما ثابتا لجمع المال من الكنائس، معتمدا على ادعاءات المؤسسات الدينية بوجوب الدفاع عن الإيمان الكاثوليكي، فانتهز ذلك لزيادة الدخل النقدي فقام بفرض ضريبة الحروب الصليبية كروثاد Cruzada، ثم زاد الواردات الملكية لتضم إسهامات المجامع الكاتدرائية التي أصبحت من أهم مصادر الدخل(1).

كان للسياسة التي اتخذها تاييرا في تنمية علاقته برؤساء الأديرة و الرهبان أثرها، حيث قام بعضهم بمنح نسبة من دخله النقدي لشارل الخامس و دعم الأساقفة للإمبراطورية بشكل كبير، حيث منح لشارل الخامس عام 1526م مبلغ يفوق 300000 دوقية لتسديد نفقات الجيوش الإمبراطورية في شمال إيطاليا، في حين ساهم الرهبان بمبلغ 40000 دوقية للدفاع عن الأراضي النمساوية و مواجهة العثمانيين، و هكذا استمر أساقفة المدن في تمويل البلاط الملكي(2).

بلغت الكشوف الجغرافية في عهد الإمبراطور شارل كان الذروة، حيث نفذ أكبر مشروع جغرافي ظهر في العالم و هو الطوفان حول العالم(3) و فتوحات الإسبان في المكسيك و بيرو في أمريكا الوسطى و الجنوبية(4)، و يقرن هذا المشروع باسم البرتغالي ماجلان (1470 - 1521م) و الذي عرض على ملك إسبانيا مشروعه فقبل به الملك، وتم توقيع العقد بين شارل كان و ماجلان في 22 مارس 1518م(5).

كان الهدف من الرحلة حول العالم أن الإمبراطور كلف ماجلان بالبحث عن الطريق

1- فاتن محيي حسن، التنظيمات الإدارية...، المرجع السابق، ص ص 246 - 247.

2- نفسه، ص 248.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 93.

4- شوقي الجمل، عبد الله عبد الرزاق، تاريخ أوروبا، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م، ص 55.

5- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 93.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

الغربي للهند⁽¹⁾، و في أغسطس عام 1519م خرج ماجلان من ميناء سان لوكار⁽²⁾ فوصل إلى شاطئ البرازيل عند ريودي جانيرو، ثم وصل إلى مصب نهر لابالاتا و دار حول أمريكا الجنوبية⁽³⁾، و في أكتوبر عام 1520م اكتشف مضيق ماجلان⁽⁴⁾ ثم دخل المحيط الهادي و واصل سيره حتى وصل إلى جزر الفلبين⁽⁵⁾ و أطلق عليها هذا الاسم تكريما لفليب ابن الإمبراطور شارلكان⁽⁶⁾، و بذلك استقرت المعلومات الجغرافية عن كروية الأرض. كانت السفينة التي قادها دون سباستيان دل كانو بعد وفاة ماجلان قد شقت طريقها عبر المحيط الهندي إلى الطريق الجنوبي لإفريقيا، ثم عادت إلى إسبانيا وبذلك دارت حول العالم، وقد انتشى الإمبراطور شارلكان بهذا النصر و اعتبره نصرا إلهيا خص الله به أسرة الهابسبورج النمساوية الكاثوليكية⁽⁷⁾.

2- تنازل الإمبراطور شارلكان عن العرش الإسباني و الإمبراطوري:

شهد عام 1555م أحداثا مهمة مهدت لبداية نهاية عهد الإمبراطور شارل الخامس، فنتيجة لعجزه عن إزالة الوجود الفرنسي و إخفاقه في استعادة متر، و انشغاله في الحروب الإيطالية و مع الدولة العثمانية، و حدوث تصدع مذهبي في الكنيسة الكاثوليكية خاصة بعد فشله في التوفيق بين المذهبين البروتستانت و الكاثوليكي و تدهور أوضاعه الصحية⁽⁸⁾، و بعد طول الحروب و التفكير العميق تسلطت على عقله فكرة التنازل عن العرش، فتوصل في الأخير إلى قرار التنازل عن عرش الإمبراطورية الرومانية⁽⁹⁾.

- 1- شوقي الجمل، المرجع السابق، ص55.
- 2- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 93 - 94.
- 3- شوقي الجمل، المرجع السابق، ص56.
- 4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 93.
- 5- شوقي الجمل، المرجع السابق، ص 56.
- 6- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 93.
- 7- شوقي الجمل، المرجع السابق، ص 56.
- 8- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 46.
- 9- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 77.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

أثار قرار الإمبراطور شارلكان بالتنازل عن العرش الشكوك، لكن استقالته في 22 أكتوبر من المرسوم الذهبي أثبتت للعالم أن قراره لا رجعة فيه (1). بعد ذلك باشر بمناقشة قضية وراثة العرش فكانت إعادة توزيع الحقوق بين ابنه فليب الثاني (2)، وأخيه فرديناند الأول (3) لوراثة الممتلكات التي يحكمها (أنظر الملحق رقم 4) مشكلة بالنسبة له، فيعتبر فليب الثاني الوريث الشرعي المعترف به في إسبانيا وإيطاليا و المستعمرات في العالم الجديد، في حين يعتبر فرديناند الأول الحاكم المعترف به في أراضي الإمبراطورية الرومانية المقدسة، فكان شارل الخامس مستعدا للتباحث في وراثته للعرش (4) فقام بتزويج ابنه فليب الثاني من ماريا ثيودور ملكة إنجلترا الكاثوليكية بعد وفاة زوجها، و ذلك رغبة في أن يؤمن لابنه ما لم يستطع تأمينه لنفسه (5) وهوزواج أراد به شارلكان ضمان وقوف إنجلترا في صف إسبانيا (6).

تنازل الإمبراطور شارلكان لأخيه فرديناند عن ألمانيا و النمسا، كما تنازل عن تاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة ومنحه لقب ملك الرومان و هو لقب يتيح له الفوز عن ما تجرى عملية انتخاب الإمبراطور (7)، و استعمل شارل الخامس المجلس الإمبراطوري المنعقد في مدينة أنيبورغ في 1 أكتوبر 1555م لتقديم فليب الثاني إلى ممثلي المقاطعات في

1- Otto Von Habsburg , Op.Cit, p 207.

2- فليب الثاني (1527-1598م): ملك إسبانيا (1556-1598م) و ابن شارل الخامس، عمل على تعزيز مكانة إسبانيا السياسية و العسكرية وأيد الكاثوليكية بقوة، تورط في حروب ضد الإمبراطورية العثمانية (1571-1578م) و إنجلترا (1588-1604م). ينظر: منير البعلبكي، المرجع السابق، ص 342.

3- فرديناند الأول (1503 - 1564م): هو الشقيق الأصغر للإمبراطور شارل الخامس، نشأ بإسبانيا و منحه شارل الخامس النمسا في عام 1521م ثم توج ملكا على ألمانيا عام 1531م، و تنازل له عن العرش في عام 1558م و ورث في نفس الوقت المجر و بوهيميا من صهره لويس الثاني ملك المجر. ينظر: محمد شفيق غربال، المرجع السابق، ص 1287.

4- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 63.

5- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 68.

6- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 77.

7- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 46.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

المجلس لطرح و مناقشة قضية وراثه العرش الإمبراطوري مع أخيه فرديناند الأول للاتفاق على من يخلف العرش بعد فرديناند الأول، هل هو ابنه ماكسيمليان الثاني أم ابن شارلكان فليب الثاني فتم الاتفاق على أن ماكسيمليان الثاني هو وريث والده على عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة(1).

غادر شارل الخامس إلى مدينة بروكسل، و في 25 أكتوبر 1555م قام بتسليم حكم الأراضي المنخفضة في قصر بروكسل لابنه فليب الثاني(2)، و بعدما تصالح مع البروتستانتيين و أعاد السلام في ألمانيا بمعاهدة أوسبورغ في أكتوبر 1555م و عهد من جديد في بروكسل لابنه عن إسبانيا و مستعمراتها في العالم الجديد(3). (أنظر الملحق رقم 5) كانت مراسم التنازل بسيطة ومؤثرة، بعد خطاب ألقاه مستشار بروكسل أمام التجمع الكبير، ثم ألقى شارل الخامس خطابا باللغة الفرنسية يلخص فيه تاريخ فترة حكمه الطويلة والصعبة، من حروبه و مخاوفه و إخفاقاته و انتصاراته، و أنه قاتل باستمرار من أجل مصلحة إمبراطوريته، أضاف قائلا "ربما ارتكبت أخطاء في حكمي لكني أرجو على التأكيد انه على حد علمي و موافقتي لم يحدث أي خطأ أو عنف تجاه أي من رعاياي، إذا كان بإمكان أي شخص أن يشكو بحق من معاناته فأنا أشهد أن ذلك حدث دون علمي و على الرغم من نفسي و أعلن أمام الجميع أنني نادم على ذلك من أعماق قلبي"، ثم التفت إلى ابنه فليب الثاني فخطبه باللغة الإسبانية أن يدافع عن الإيمان الكاثوليكي و يسعى إلى السلام و العدالة(4)، ثم لم يعد قادرا على الوقوف من التعب و كان صوته يرتجف من العاطفة أين تأثر الجميع بكلماته، ثم ركع فليب أمامه معلنا أنه لا يستحق هذا الشرف العظيم(5).

1- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 65.

2- Otto Von Habsburg, Op.Cit, p 207.

3- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 68.

4- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, p p 254 - 255.

5- Christopher Hare, Op.Cit, p 265.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

كتب رسالة بعد تنازله عن إسبانيا لصديقه أندريا دوريا يتأسف فيها بشدة لعدم تمكنه من مقابلته مرة أخرى، و توسل إليه أن يخدم فليب بنفس الشجاعة و الإخلاص الذي أظهره لنفسه، و أعرب عن تمنياته الصادقة له بالصحة و السعادة(1).

غادر شارل الخامس مدينة بروكسل في 8 أوت 1556م متوجها إلى إسبانيا، فمر أولا على مدينة لاريدو Laredo شمال إسبانيا، ثم توجه إلى مدينة بورغوس فمكث يومين في قصر كاساديل كوردون Casadel Gordon، ثم لحقت به شقيقتيه ماري الهنغوية و الينور أرملة فرانسوا الأول، ثم انتقل إلى السكن في دير إيرونيمييتي Hieronymite في مدينة يوستي Yuste في مقاطعة كاتيرس Cacres قرب إسبانيا(2).

أرسل شارل الخامس إلى أخيه فرديناند الأول في نفس السنة رسالة يتنازل فيها عن منصبه الإمبراطوري له و هو ما يخالف المرسوم الذهبي، فاضطر أعضاء المجمع الانتخابي قبول قراره(3)، و لم يبق له سوى لقب الإمبراطور الذي احتفظ به لنفسه إلى حين وفاته(4)، و في ماي 1558م توج فرديناند الأول إمبراطورا للإمبراطورية الرومانية المقدسة ذلك قبل أربعة أشهر من وفاة تشالز(5). (أنظر الملحق رقم 6)

3- وفاته

خلال شتاء عام 1557م كان تشارلز يعاني من عدة نوبات مرضية خطيرة و لربما تفاقمت بسبب الرطوبة و الضباب في منزله في الدير(6)، و في شهر سبتمبر من عام 1558م شعر أطباؤه بالقلق الشديد كون أن الموسم غير صحي للغاية و كان هناك الكثير

1- Christopher Hare, Op.Cit, p 268.

2- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 68.

3- نفسه، ص 69 - 70.

4- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 244.

5- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, 257.

6- Christopher Hare, Op.Cit, p 289.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

من الأمراض في الدير⁽¹⁾ و في 30 أوت شارك شارل الخامس في احتفالات في كنيسة الدير، و أثناء عودته في الصباح الباكر إلى المنزل كان يعاني من صداع شديد، و في اليوم التالي كان يرتجف و يهذي بالحمى التي لم تفارقه فتناول القربان المقدس⁽²⁾، و في سبتمبر وصل الدكتور كورنيل Cornelle لمساعدة زميله مانيس Maths ، و كان تشالز لا يزال في خطر و استمرت الحمى مصحوبة بالقيء العنيف⁽³⁾ و في 20 سبتمبر ساءت حالته أكثر و كان الموت يقترب⁽⁴⁾.

كان على يساره يوجد الصليب الخاص بزوجته، و هو آخر شيء نظرت إليه أثناء وفاتها فأخذته و ضمه إلى صدره⁽⁵⁾، فكان يحوم بين الحياة و الموت فأعطى توجيهات كاملة فيما يتعلق بدفنه و طلب أن يدفن بجانب زوجته⁽⁶⁾، و في الساعات الأولى من يوم 21 سبتمبر 1558م توفي الإمبراطور شارل كان و كانت كلمته الأخيرة يسوع⁽⁷⁾، و ذلك بعد معاناة مع نوبات النقرس و إصابته بمرض الملاريا، و دفن تحت المذبح (أولتار Aoltar) في كنيسة مدينة يوستي استجابة لوصيته⁽⁸⁾، أقيمت مراسم جنازة رائعة في جميع أنحاء ممتلكاته و ضجت جميع الكنائس بترتيل الرثاء و خطب الجنازة⁽⁹⁾.

1- Christopher Hare, Op.Cit, p 300.

2- القربان المقدس: أحد الأسرار المقدسة في الكنيسة الكاثوليكية عددها سبعة (التعميد التثبيت سر التوبة سر القربان المقدس، مسحة المرضى، سر الكهنوت، سر الزواج). و يقصد بسر القربان المقدس تناول الخبز و النبيذ بحضور القس أو الأسقف أسوة بالعشاء الرباني الأخير، فيتحول عند إشارة القس أو الأسقف إلى لحم و دم المسيح و هذه الأسرار علامات ظاهرية وضعها المسيح للحصول على العناية الإلهية و الرحمة. أنظر: محمد محمد صالح، المرجع السابق ص،174.

3- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, P 267 - 268.

4- Otto Von Habsburg, Op.Cit, P 214.

5- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, P 270.

6- Christopher Hare, Op.Cit, p 300.

7- Otto Von Habsburg, Op.Cit, P 215.

8- فاتن محيي حسن، الإمبراطور شارل الخامس...، المرجع السابق، ص 70- 71.

9- Christopher Hare, Op.Cit, p p 302 – 303.

الفصل الأول: اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518 - 1519م)

خلاصة:

ولد الإمبراطور شارل كان وسط أسرة ملكية استقبلته بأبهة وابتهاج، فأمضى طفولته في الأراضي المنخفضة، فنشأ تحت رعاية عمته مارغريت النمساوية و ذلك بعد مغادرة الملكة خوانا هولندا إلى إسبانيا بعد وفاة زوجها فليب الجميل. تلقى تعليماً دقيقاً على يد ثلة من العلماء، وكان عالمه حافلاً بالشخصيات الفتية القوية أمثال فرانسوا الأول وهنري الثامن وسليمان القانوني.

توج شارل كان ملكاً على العرش الإسباني في 20 فيفري 1518م باسم شارل الأول، ثم إمبراطور الإمبراطورية الرومانية المقدسة باسم شارل الخامس في عام 1519م وذلك بعد منافسة شديدة مع ملك فرنسا فرانسوا الأول، فكانت عملية الانتخاب عبارة عن مساومة مالية و رشاوي أين سعى كل طرف للحصول على التاج، ورغم الجهود التي بذلها فرانسوا الأول إلا أنه خسر أمام شارل كان.

أثار تتويجه كإمبراطور للإمبراطورية الرومانية السخط في قشتالة، و ذلك بحجة أنه قبل بتاج أجنبي دون استشارة برلمانهم، وهو ما انتهى بالتمرد الفعلي ضده.

بدأ تمرد الكمونيرو من مدينة طليطلة ثم امتد و توسع فضم عدة مدن، لكن الإمبراطور تمكن من القضاء على هذا التمرد بعد مواجهات عنيفة بينهم و بين القوات الملكية.

سعى الإمبراطور شارل كان بعد توليه الحكم على القيام بإصلاحات في مختلف المجالات، الإدارية و الدينية خاصة العسكرية منها باعتبار أن فترة حكمه شهدت الكثير من الحروب.

انتهت فترة حكمه بتنازله عن ملك إسبانيا لابنه فليب، و عن عرش الإمبراطورية لأخيه فرديناند الأول، ثم عاش في خلوة وبعد معاناة مع المرض توفي في عام 1558م.

الفصل الثاني:

أعمال الإمبراطور شارل الخامس في أوروبا

المبحث الأول: إسبانيا في الحروب الإيطالية (1515 - 1558م)

المبحث الثاني: الإمبراطور شارلكان في مواجهة الحركة الدينية اللوثرية في

ألمانيا

تمهيد

كان القرن 16م مسرحية تاريخية تتألف من عدة فصول أثبتت مدى ضعف الارتباطات الدينية و الجنسية والثقافية إزاء مطامع البشر وحبهم المفرط للحرب، و التي كان لها تأثير سلبي على العلاقات التي كانت تربط بين الدول الأوروبية مما حدا بالمؤرخين إلى وصف هذا القرن بقرن التحولات، وأول هذه الفصول الحروب الإيطالية فإذا بحثنا في جذورها وجدنا أنها ترجع في أصلها إلى العصر الوسيط، غير أنها ما لبثت أن أخذت شكلا جديدا وأدت إلى مفاهيم حديثة لم تكن معروفة من قبل، والتي استمرت ما يقرب 50 سنة بين إسبانيا و فرنسا أين سعت كل دولة لبناء كيائها السياسي و الإقليمي على حساب الدول المجاورة، و ثاني هذه الفصول الحركة الدينية بزعامة مارتن لوثر في ألمانيا، التي اشتدت جذورها في القرن 16م وغدت أكبر و أبرز معالم التاريخ، ولا تزال نتائجها باقية إلى اليوم والتي جرت أوروبا إلى حروب دموية حامية، وكل هذه التحولات في الوقت الذي ظهرت إسبانيا بوصفها قوة إمبراطورية لما كانت تمتلكه من مؤهلات في النواحي العسكرية والسياسية والاقتصادية فضلا عن سيطرتها على معظم الأمريكيتين.

المبحث الأول: إسبانيا في الحروب الإيطالية (1515- 1559م):

1- الخلفية التاريخية للحروب الإيطالية:

يعتبر الانتخاب الإمبراطوري في عام 1519م نقطة الانطلاق، لأن اعتلاء شارل الخامس عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة، وما نتج عنه من نزاع حول دوقية بورغوندي في شمال شرق فرنسا أثار أول حرب كبرى عرفتها العصور الحديثة للهيمنة على الغرب الأوروبي، ونقصد بها الدور الثاني من الحروب الإيطالية (1515- 1559م)⁽¹⁾⁽²⁾، علما أن الدور الأول لهذه الحروب بدأ مع عبور شارل الثامن Charles 8 ملك فرنسا (1473- 1497م) جبال الألب في سبتمبر 1494م، و نزل في بيد مونت أين اجتاح جيشه فلورنسا و وصل إلى العاصمة روما في 31 ديسمبر 1494م قاصدا نابولي⁽³⁾، و في هذا الدور حاولت فرنسا تحقيق إدعاءاتها في نابولي و ميلان أين هاجم شارل الثامن إيطاليا في فيفري 1465م مفتحاً الحروب الإيطالية⁽⁴⁾، ثم تتالت عدة حملات وجهتها كل من الدول الأوروبية الكبرىفرنسا و إسبانيا و الإمبراطورية المقدسة إلى شبه جزيرة إيطاليا⁽⁵⁾.

شجعت الأوضاع المتردية لإيطاليا الدول الأوروبية الطامعة في تدعيم كيائها السياسي في الداخل⁽⁶⁾، كما شجعت ظروفها السياسية و ثرواتها الكبيرة التي كانت تجتنيها من نشاطها التجاري فرنسا لغزوها⁽⁷⁾، فبالرغم من أنها مهد النهضة الأوروبية الحديثة حيث أصبحت من أغنى الشعوب الأوروبية و أقواها نهضة في الفن و الآداب، إلا أنها لم تشهد

1- الحروب الإيطالية: هي تلك الحملات التي وجهتها كل من الدول الأوروبية الكبرى فرنسا إسبانيا و الإمبراطورية الرومانية المقدسة إلى شبه جزيرة إيطاليا . ينظر: نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 28.

2- نفسه، ص 28.

3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 88.

4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 103.

5- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 28.

6- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 86.

7- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 100.

أي اهتمام بالجانب العسكري و لم يكن لها جيش يدافع عن كيانها و مصالحها، حيث كانت الجيوش المرتزقة هي التي تدافع عنها(1)، أين وجد شارل الثامن الذرائع التاريخية لغزوها فقد حكمت أسرة أنجو في نابولي و لم يكن فشلها و طردها من الأمور التي تجعل فرنسا تحجم عن المطالبة بتحقيق أطماعها، بالإضافة إلى صلة المصاهرة بين أسرتي أورليان بفرنسا و الأسرة الحاكمة في ميلان بسهل لمبارديا، لذلك استجابت فرنسا لنداء حاكم ميلان لودفيكو Lodovico عند ما طلب منها المساعدة ضد فلورنسا.

تعد هذه الأسباب في الحقيقة ذريعة لا أسباب حقيقية، حيث كانت فرنسا من أقوى الدول و يحسب لها ألف حساب في ذلك العهد(2)، و ذلك بعد استثمارها للانتصار الذي حققته في حرب المائة عام(3) بعد إتحادها و قيام حكومة قوية بها(4)، فبعدما استقرت الأمور لأسرة الفالوا في الداخل أصبحت تتطلع لانتصارات في الخارج و السيطرة على أكبر عدد من الممتلكات على حساب إيطاليا الضعيفة التي تفتقر إلى القيادة السياسية الموحدة(5)، أما إسبانيا فقد أصبح لها جيش قوي و ذلك بعد الانتهاء من نزاعها القومي و الديني مع المسلمين و طردهم من القارة الأوروبية، و كانت لها حقوق في إيطاليا كفرنسا أو أكثر(6).

اختلف موقف الدول الأوروبية الأخرى من الحروب الإيطالية، فإنجلترا كانت لا تزال تحتفظ منذ حرب المائة عام بثغر كاليه في فرنسا، فخشي هنري الثامن ضياعها في حال قويت فرنسا فكان عليه التدخل للحصول على زعامة سياسية لإنجلترا بين الدول، أما الإمبراطور ماكسيمليان الأول فكانت أملاكه في إقليم التيرول متاخمة لجمهورية البندقية،

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 63.

2- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص ص 101 - 100.

3- حرب المائة عام (1337-1453م): عبارة عن صراع طويل بين فرنسا و إنجلترا أين ادعى الملوك الإنجليز العرش الفرنسي و كافحوا من أجله، و انتهت بطرد الإنجليز من فرنسا باستثناء كاليه. ينظر: نجاة سليم محمود محاسيس، معجم المعارك التاريخية، ط 1، دار زهران للنشر والتوزيع، الأردن، 2011، ص 461.

4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 86.

5- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص ص 100 - 101.

6- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 86.

فكان يخشى تفوق نفوذ جمهورية البندقية أو تسلط دول كبرى على شبه الجزيرة الإيطالية⁽¹⁾. وجدت سويسرا في هذه الحرب مجالات للعمل جنودا مرتزقة في الجيوش المتحاربة، أما بالنسبة للدويلات الإيطالية فقد انقسمت إزاء هذا الصراع بحيث انضم بعضها إلى إسبانيا و البعض الآخر إلى فرنسا⁽²⁾.

شهدت أواخر القرن 15م تفوق ثلاث دول: إنجلترا وفرنسا و إسبانيا من حيث القوة و الوحدة تحت حكم ملوك أقوياء، أما إيطاليا و ألمانيا كانتا نهبا للانقسام و الضعف، و كانت فرنسا أقوى و أقرب جيرانها ما جعل إيطاليا تكون هي المجال الحيوي الطبيعي للتوسع الفرنسي، أين كانت المدن و الدويلات الإيطالية تتنافس و تحارب بعضها البعض⁽³⁾. تعتبر الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا و إسبانيا ما بين (1449- 1552م) مظهرا من مظاهر التنافس الدولي بين هاتين الدولتين، من أجل السيطرة و النفوذ و الرغبة في التوسع الإقليمي داخل أوروبا، و لقد كانت شبه الجزيرة الإيطالية ميدانا لتصارع هاتين الدولتين خلال المراحل الأولى من مراحل الحرب، ثم تطورت بعد ذلك إلى صراع أوروبي اتسع و انتقل نطاقه إلى ميادين متعددة خارج شبه الجزيرة الإيطالية⁽⁴⁾.

2 - مراحل الحروب الإيطالية:

أ- المرحلة الأولى (1515- 1519م):

يبدأ الدور الثاني من الحروب الإيطالية باعتلاء فرانسوا الأول عرش فرنسا عام 1515م، إلى انتخاب شارل الأول ملك إسبانيا إمبراطور للإمبراطورية الرومانية المقدسة

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 102.

2- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 37.

3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 63.

4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 100.

باسم شارل الخامس عام 1519م⁽¹⁾، و أول ما فكر به فرانسوا الأول هو معاودة الحرب في إيطاليا لاسيما بعد أن وجد بلاده محاطة بأملاك هابسبورج، فحاول التخلص من التطويق بتأليب الدول الصغرى على أكبر إمبراطورية في أوروبا، فقرر استعادة ميلان فالتقى الجيشان في مرينيان بالقرب من ميلان و دامت المعركة يومين من 1 إلى 14 سبتمبر 1515م وكان النصر حليف الفرنسيين⁽²⁾، و بذلك حقق فرانسوا الأول السيطرة الفرنسية على شمال إيطاليا، و منح له حق السيطرة على ميلان و جنوة وإقليم لمبارديا⁽³⁾. و أخيرا عقد فرانسوا الأول مع شارل الشاب في أوت 1516م معاهدة نويون Noyon، و التي جدد فيها وعده بأن يتزوج أميرة فرنسية و أن يكون الصداق الجزء الخاص من مملكة نابولي الذي يدعيه فرانسوا لنفسه⁽⁴⁾، وبموجبها احتفظت فرنسا بميلان و إسبانيا بمملكة نابولي وبدأ السلام يعم في أوروبا و لكنه لم يدم طويلا فقد عادت الحرب ثانية في عام 1521م، و بصورة أوسع في تكوين إمبراطورية كبرى لصالح شارل كان⁽⁵⁾.

ب- المرحلة الثانية (1519- 1529م):

لم تمض سنوات على الهدوء الذي ساد بين البلدين بعد موقعة مارينانو، حتى وقع حدث هام أدى إلى تجديد الصراع بينهما، فبعد وفاة الإمبراطور ماكسيمليان الأول في 12 جانفي 1519م أصبح منصب إمبراطور الإمبراطورية المقدسة شاغرا، فقد كان هذا المنصب يشغل عن طريق الانتخاب لا الوراثة أين كانت عملية الانتخاب مقصورة على حكام المقاطعات الألمانية الهامة وعددهم سبعة أطلق عليهم اسم الناخبون، و جرى العرف أن يكون الإمبراطور من أصل جرمانى لكن الأمر تغير أين ظهر اتجاه جديد يقر بأنه لا يوجد

- 1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 116.
- 2- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 54.
- 3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 95.
- 4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 117.
- 5- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 55.

قانون أو دستور يجعل هذا المنصب مقصورا على الجنس الجرمانى(1). فإذا تم انتخاب شارل الخامس ملك إسبانيا لعرش الإمبراطورية يصبح وريثا لجميع ممتلكات أسرة هابسبورج، لكن ظهر له منافس خطير و هو الملك فرانسوا الأول الذي رشح نفسه، و ما شجعه على ذلك هو الاعتقاد السائد في أوروبا بأن التوازن الدولي قد يختل بانتخاب شارل الخامس(2)، كما رشح هنري الثامن ملك إنجلترا نفسه، و أمام رغبة الشعب الألماني في عدم تولي هذا المنصب من أي أجنبي، كان في نظرهم بأن شارل الخامس هو الأنسب لهذا المنصب لأنه أقوى شخصية في أوروبا، وهو حفيد الإمبراطور ماكسيمليان و أنه سيحقق للشعب الإيطالي الزعامة في أوروبا(3).

انسحب هنري الثامن من هذه الانتخابات و بقيت المنافسة محصورة بين شارل الأول و فرانسوا الأول. اجتمع المجلس الإمبراطوري أوالدايت في فرانكفورت في جوان 1519م، فتم انتخاب شارل الخامس بالإجماع في 28 جوان إمبراطورا الدولة الرومانية المقدسة تحت اسم الإمبراطور شارل الخامس(4)، و كان المتوقع أن تحيا المنافسة و تستمر العداوة بين فرانسوا الأول و شارل الخامس و التي ستؤدي إلى قيام حرب بينهما(5).

تمثل هذه المرحلة من الحروب بداية الصراع بين أكبر أسرتين حاکمتين في تلك الفترة، و هما أسرة الهابسبورج الألمانية و الفالوا الفرنسية و ذلك للسيطرة على أوروبا(6).

بدأت العمليات الحربية بين الطرفين في عام 1521م، وذلك بعد فشل الجهود الهادفة

إلى الصلح بين شارل الخامس و فرانسوا الأول بعد اجتماعهما في كنييس Guines شمال

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 117- 118.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 69.

3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 96.

4- عبد العزيز عمر، المرجع السابق، 118

5- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 69.

6- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 96.

فرنسا في عام 1520م، فقام فرانسوا بالهجوم على لكسمبورغ في الأراضي المنخفضة شمال فرنسا، أين استغل تمرد الكومونيرو في إسبانيا فاستولى على بامبيلونا Pampelua شمال إسبانيا، ما جعل إسبانيا توجه ثقل قوتها لقمع تمرد الكومونيرو بدلا من أن توجه قواتها لفرنسا ما أدى إلى اتحاد أراغون مع قشتالة للدفاع، فاستولت على المدفعية الفرنسية و أسرت القائد ليسبير و عدد من قواته، و استعاد الجيش الإسباني نافار الجنوبية، في حين استولت فرنسا على مدينة فوينتارابيا Fuenterrabia في شمال شرق إسبانيا(1).

فكر شارل الخامس في ربط أملاكه على حساب فرنسا، حيث أنه إذا تفككت فرنسا فإنه يستطيع ربط إسبانيا من جهة الأراضي المنخفضة و فرانش و كومتيه من ناحية أخرى، فقام بعقد اتفاق مع الثائر الفرنسي و قائد جيوش فرنسا دوق دي بربون، للحصول على دوفين Dauphine و بروفانس Provence ليضمن ربط ممتلكاته بروجنديا و إسبانيا بإمارة تدين له بالولاء(2)، و قد نص الاتفاق على أن يقوم الكونستابل بتحريك ثورة فرنسا للإطاحة بحكم فرانسوا الأول، و في المقابل يهاجم شارل الخامس و هنري الثامن ملك إنجلترا مقاطعات من فرنسا، كما يسترد الكونستابل الأراضي التي انتزعت منه لإنشاء مملكة مستقلة في جنوب فرنسا(3).

توجهت أنصار العاهلين للإستئثار بملك إنجلترا هنري الثامن، فقام شارل الخامس بإجراء مفاوضات معه و هو في طريقه إلى إكس لاشابيل لتسليم التاج الإمبراطوري، فتوقف في ميناء دوفر الإنجليزي و تمكن من استمالته لجانبه ضد فرانسوا الأول مقابل إقليم بيكارديا و نورماندى الفرنسيين في حين فشلت محاولات فرانسوا الأول(4).

1- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 39.

2- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 96 - 97.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 120.

4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 97.

بدأت الحرب من جديد بين الطرفين في عام 1521م، و دفعت فرنسا بجيشها إلى شمال إيطاليا و كان يظم جنودا مرتزقة سويسريين فاضطر الجيش إلى إخلاء ميلان لضعف الهجوم الإمبراطوري⁽¹⁾، و الذي تحصل على مساعدة البابا ليو العاشر في إيطاليا لتشكل جيش تعداده 20000 رجل بقيادة كولونا Colonna⁽²⁾، و أبيض الجيش الفرنسي بالقرب ميلان و تم طردهم منها نهائيا في 27 أبريل 1522م، و بعدها أعلنت إنجلترا في 29 ماي 1522م انضمامها إلى جانب الإمبراطور⁽³⁾.

تحسنت التطلعات المستقبلية لشارل الخامس بعد أن تولى معلمه الخاص الوصي أدريان كرسى البابوية باسم أدريان السادس عام 1522م و لكن سرعان ما انقلب الوضع لصالح فرنسا بعد فشل حملة هنري الثامن ملك إنجلترا على بيكاردي Picardy في شمال فرنسا، فضلا عن هزيمة شارل الخامس في نافار فعاد إلى إسبانيا دون أي انتصار باستثناء استعادة مدينة فوينتارابيا في 24 مارس 1524م، مادفع بفرنسا إلى إرسال حملة لاستعادة ميلانو إلا أنهم فشلوا أمام قوات شارل الخامس⁽⁴⁾.

قاد فرانسوا الأول جيشه عبر جبال الألب في أكتوبر 1524م، فاصطدم بقوات شارل الخامس بقيادة أنتونيو دي ليبيا البالغ عددها 5600 مقاتل من المرتزقة و الإسبان فتعرضوا لهجوم فرنسي في 28 أكتوبر 1524م إلا أنه فشل، ففرض فرانسوا الحصار على بافيا لمدة شهرين في عام 1525م وبلغ عدد القوات الفرنسية 30000 مقاتل، و رغم قوة حراسة بافيا و موارد القائد ليبيا فإنها خضعت إلى ظروف قاهرة شديدة، فتجمع الجيش الإمبراطوري في منطقة لودي lodi في مقاطعة لومباردي بقيادة كل من دوق بربون وبيسكارا pescara ولانوي lannoy فقرر إغاثة بافيا في 30 جانفي 1525م فقام فرانسوا

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 119.

2- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 39.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 119.

4- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص ص 39 - 40 .

الأول بإرسال جزء من قواته إلى نابولي لاستمالة العدو، فكانت النتيجة أن أصبح جيشه محاصرا من طرف الجيش الإمبراطوري وحرس بافيا(1).

هزم فرانسوا الأول هزيمة ساحقة و اضطر إلى تسليم نفسه للعدو ثم نقل إلى حصن بيزيغتون، و منه أرسل كتابا شهيرا إلى أمه لويز سافوا يقول فيه " لقد خسرت كل شيء ولم يبق لي إلا الشرف و الحياة"، ثم نقل إلى إسبانيا و سجن في حصن القصر في مدريد(2)، و قد صدمت هذه الأخبار أوروبا بأكملها و رأى تشارلز و بعض أتباعه أمرا إلهيا في هذه النتيجة التي لم تكن متوقعة على الإطلاق في المعركة، و كان أسفه الوحيد أنه لم يكن وسط قواته عندما حققوا أعظم انتصار في القرن(3).

افتتحت مفاوضات السلام بين الطرفين و لم تكن نية شارل الخامس الضغط على فرانسوا الأول، لأنه كان متلهفا لتحقيق السلام مع فرنسا ليتفرغ للتهديد التركي و المشكلة اللوثرية في ألمانيا(4)، فكلف فرانسوا الأول والدته لويز سافوا بإدارة المفاوضات و كان ذلك اختيارا ممتازا من جانبه لأنها كانت دبلوماسية بارعة تتمتع بحس سياسي متطور للغاية(5).

كان في مقدمة مطالبه استعادة دوقية بورغندي حيث كان لايزال يعتبر نفسه دوق بورغندي الشرعي، و رفض المطالب الفرنسية بميلان و نابولي و كذا الفلاندرز و مقاطعة أرتوا(6)، و يستعيد دوق بربون جميع ممتلكاته بما في ذلك مقاطعة بروفانس، وأن يحصل هنري الثاني على كل ممتلكات Plamtagent التي كانت لإنجلترا في فرنسا خلال العصور الوسطى، و بذل الدبلوماسيون الفرنسيون كل جهودهم ضد هذه الشروط، فتنازل شارل الخامس عن الكثير من النقاط باستثناء دوقية بورغندي، فرضخ فرانسوا الأول على

1- ماريا حسن مغتاظ التميمي، المرجع السابق، ص 40.

2- نور الدين حاطوم، المرجع السابق، ص 61.

3- Otto Von Habsburg, Op.Cit, p107.

4- ماريا حسن مغتاظ التميمي، المرجع السابق، ص 40.

5- Otto Von Habsburg, Op.Cit, p 109.

6- Ibid, p111.

هذا الشرط و تم التوقيع على معاهدة مدريد⁽¹⁾ في 14 فيفري 1526م⁽²⁾. (أنظر الملحق رقم7)

أعطت معركة بافيا و معاهدة مدريد للإمبراطور تفوقا سياسيا واسعا لا مثيل له في أوروبا، و قد قضى ذلك على مبدأ التوازن الدولي في أوروبا و هذا ما دفع بحلفائه إعادة النظر في موقفهم منه، فوقع حكام الإمارات الإيطالية في 22 ماي 1526م حلف كونياك Congnac لتخليص إيطاليا من نفوذه⁽³⁾ ولوضع حد لسيطرته و خطره، فأقدمت فرنسا على نقص معاهدة مدريد مدعية أن توقيعها لم يكن شرعيا ذلك أنه تم الضغط على الملك لتوقيعها و هو أسير لدى الإمبراطور، و قد ضم الحلف المقدس كل من البابا كلمنت السابع Clement 7 و البندقية و فلورنسه، مؤيدا من ملك إنجلترا، فوقف الإمبراطور عاجزا عن دفع مرتبات جنوده بالإضافة لفقدانه أعظم قادته بيسكارا و كولونا و نجاح الأتراك في التقدم نحو المجر⁽⁴⁾.

تألف الحلف المقدس في مدينة كونياك جنوب غرب فرنسا، و كان البابا فخورا بتكوينه، لذلك أطلق عليه "حلف كونياك" المقدس فجلب الإمبراطور تعزيزات من ألمانيا و إسبانيا إلى إيطاليا، و تجمعت هذه القوات في بياجينتسا piacenza شمال إيطاليا بقيادة الكونستابل شارل دوق بربون و فروند سيرك، و في عام 1527م استمال الإمبراطور أسرة كولونا الإيطالية القوية و أعطى لها حق استخدام الأراضي التابعة لمملكة نابولي الهجوم على الممتلكات البابوية، ما دفع بالبابا إلى عقد هدنة مع شارل الخامس في أفريل 1527م⁽⁵⁾.

1- احتوت معاهدة مدريد على 50 مادة اهمها: أن يتنازل فرانسوا الأول عن دوقية برجنديا (فرانش، كومتيه و برجنديا) شرق فرنسا و عن إدعاءاته في ميلان و جنوة و أسي و أرتوا و فلنדרز و عدم مساعدة نافار، و يرد الأراضي التي صادرها من الكونستابل دوق بربون و أن يقدم والديه رهينة في إسبانيا لضمان تنفيذ شروط المعاهدة، و يتعهد في حالة عدم تنفيذ شروط المعاهدة بتسليم نفسه لإعادة أسرته و أن يتزوج اليا نور شقيقة شارل الخامس و أن يتم تنفيذ شروط المعاهدة خلال أسابيع من توقيعها. ينظر: عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 97 - 98.

2- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص ص 40 - 41.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 121.

4- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 70.

5- ماريا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 41.

عبر الجيش الإمبراطوري جبال الألب متوجها نحو إيطاليا و كانت رواتبهم قد تأخرت و نفذت مؤنهم، فتوجه الجيش نحو روما مارا بفلورنسا فلم يستطع قائدهم الفرنسي السيطرة عليهم فنهبوا روما و قاموا بهتك النساء و الراهبات لمدة ستة أشهر، و هو ما أثار سخط العالم الكاثوليكي و هنري الثامن الذي كان لا يزال مخلصا للبابا(1)، و وقع البابا كلمنت في أيدي هؤلاء المتمردين، ولم تشهد روما كذا سلب و نهب من قبل أين أزهدت الآلاف من الأرواح(2)، و كان لهذا الحدث أثر عظيم في تاريخ إنجلترا حيث عجز كلمنت السابع بسبب الأسر من طرف الإمبراطور السماح لهنري الثامن بطلاق كاترين الأرغوانية قريبة الإمبراطور، فنتج عن ذلك الانفصال بين كنيسة روما و إنجلترا وقيام الإصلاح الديني في إنجلترا(3).

تأخرت رواتب القوات فشلت حركة الجيش، فتمكن الجيش الفرنسي بقيادة لوتريك Lautrec من غزو ميلان و جنوة و التحرك لمحاصرة نابولي برا، فقام شارل الخامس بإقناع الأدميرال أندريا دوريا التخلي عن الفرنسيين أين أصبحت جنوة الحليفة الدائمة لإسبانيا، و ترتب عن ذلك رفع الحصار عن نابولي، كما أن انتشار وباء الطاعون في صفوف القوات الفرنسية دفعهم للانسحاب، واستعاد الإمبراطور نابولي و ميلان(4).

رغم أن فرانسوا الأول أحرز بعض الانتصارات كما قام بتخليص البابا من الأسر، إلا أنه انهزم في موقعه لاندرينو Landraino شمالي فرنسا في 21 جوان 1529م و ذلك بعدما حاول الزحف إلى نابولي(5).

لما كان فرانسوا الأول على وشك الانهيار بعد كل الهزائم التي تعرض لها، خشي الدخول في معركة حاسمة فضلا عن خوفه على ولديه الموجودين في إسبانيا كرهينة، كما

1- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 238.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 71.

3- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 103.

4- ماريان حسن مغناظ التميمي، المرجع السابق، ص 42.

5- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 122.

كان شارل الخامس منشغلا بالتصدي لحركة الإصلاح الديني في ألمانيا، و الهجوم العسكري العثماني بقيادة سليمان القانوني للزحف على فينا في عام 1529م⁽¹⁾، إلا أن القوات العثمانية فشلت في اقتحامها و بذلك توفرت كل الظروف لعقد صلح كامبري⁽²⁾ في 3 أوت 1529م⁽³⁾، و ذلك في مدينة كامبري وأطلق على هذه المعاهدة سلم السيدات، كون أن الملكة لويز والدة الملك الفرنسي كانت تمثل الجانب الفرنسي، أما مارغريت عمة الإمبراطور شارل الخامس و حاکمة الأراضي المنخفضة تمثل الجانب الإسباني⁽⁴⁾ وهكذا سويت مسألة الميراث البورغندي نهائيا، أما الفتيل الذي بقي يهدد اشتعال الحرب من جديد هي قضية ميلانو⁽⁵⁾، و بهذا تنازل فرانسوا عن أحلامه و أصبح الإمبراطور شارل كان السيد على شبه الجزيرة الإيطالية⁽⁶⁾، و كان هذا الصلح مكسبا سياسيا للإمبراطور، فقد حقق أهدافه في غرب الراين و جنوب الألب و سادت العلاقات الودية بينه و بين البابا كلمنت الذي قام بتتويجه في مدينة بولونيا في شمال إيطاليا⁽⁷⁾ أين استلم تاج

- 1- حصار فينا 1529: غادر السلطان سليمان القانوني استانبول في 10 ماي 1529م في حملة إلى المجر، فوصل بالقرب إلى بودين في 3 سبتمبر 1529م وهناك تقدم نحو فينا ليواجه فرديناند، فظهر المهاجمون الأتراك بالقرب من فينا ونجحوا في هزيمة بعض وحدات العدو فأجبر فرديناند على مغادرة فينا وفي النهاية وصل السلطان إلى فينا و أقام في قرية سيمرينج Simmereing وأخيرا وجد الجيش نفسه أمام قلعة فينا التي تعد مركزا مهما لآل هابسبورج فحاصروها أواخر سبتمبر واستمر الحصار لمدة سبعة أيام، ثم رفع بأمر من السلطان وذلك لعدم وجود فرديناند هناك وطلب أهلها الأمان. ينظر: فريدون أمجان، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط2، تر: جمال فاروق، أحمد كمال، تح: إسماعيل كابر، مر: يوكسل جلبنار، عبد الرزاق أحمد، تص: إبراهيم الكبير، تص: أحمد علي شحاتة، دار النيل، مصر، 2013م، ص ص 119 - 124.
- 2- لعل أهم ما جاء في معاهدة كامبري: يتنازل فرانسوا الأول عن إدعاءاته في ميلان و نابولي و كل من أرتوا و فلاندرز ، و أن يكف نهائيا عن التفكير في استرداد مدينتي ليل و دوويهو أن يتزوج فرانسوا من شقيقة الإمبراطور اليانور، في حين يتنازل الإمبراطور عن إدعاءاته في برجنديا لصالح فرنسا و أن يتم إطلاق سراح أبناء ملك فرنسا في إسبانيا مقابل مليون قطعة ذهبية. ينظر: عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 122.
- 3- ماريّا حسن مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 42.
- 4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 99.
- 5- جان بير نجيه، المرجع السابق، ص 334.
- 6- إيلي الصباغ، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ط 2، منشورات جامعة دمشق، 1998م، ص 175.
- 7- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 122.

لومبارديا وتاج الإمبراطورية الرومانية المقدسة في عام 1530م⁽¹⁾.

ج- المرحلة الثالثة (1529- 1547م):

جاء هذا الصراع بين أسرتي الفالوا و آل هابسبورج خلال السنوات الأخيرة من حكم فرانسوا الأول.

ترك الإمبراطور الحرب مع فرنسا بصفة مؤقتة بعد صلح كامبري، لكي يتفرغ لإعادة الوحدة الدينية و المحافظة على مصالح و نفوذ آل هابسبورج في ألمانيا و إيطاليا، و تمثلت المشاكل الداخلية و الخارجية التي واجهها الإمبراطور في تقاوم حركة الإصلاح الديني بزعامة مارتن لوتر و الخطر العثماني سواء في القارة الأوروبية أو حوض البحر الأبيض المتوسط، و في إغارة سكان شمال إفريقيا الذين توحدت صفوفهم تحت قيادة خيرالدين بربروس⁽²⁾ على شواطئ إسبانيا و نابولي⁽³⁾.

بعد ما تأثرت الحروب الإيطالية بهذه الظروف انتهز فرانسوا الأول هذه الهزيمة، محاولاً تأييد الحركة المناوئة للهابسبورج في ألمانيا، بالتحالف مع الأمراء البروتستانت⁽⁴⁾ بل مع الأتراك العثمانيين، فلم يتردد من إبرام تحالف مع سليمان القانوني وضم قواته إلى قوات التركي العظيم⁽⁵⁾، فعقد معهم معاهدة الامتيازات التجارية في عام 1535م، أين اتفقت القوتان الفرنسية و التركية في التحالف ضد الإمبراطورية الرومانية⁽⁶⁾.

1- محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 139.

2- خير الدين بربروس: من مواليد 1483م و لد في جزيرة(مدلي) إحدى جزر اليونان، كان يمارس القرصنة في عرض البحر و بزغ اسمه عند دخوله الجزائر في مواجهة الإسبان فحقق عدة انتصارات، و لقب بربروس و توفي عام 1546م . ينظر: مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تح، تق، تع: عبد الله حمادي، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009م، ص ص 5 - 11 - 12 - 13.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 123.

4- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 103.

5- جان بير نجيه، المرجع السابق، ص 334.

6- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 103.

استمر صلح كامبري لمدة سبع سنوات، ثم تجدد الصراع مرة أخرى فلم يقبل فرانسوا الأول التنازل عن إدعاءاته في إيطاليا و خاصة دوقية ميلان، كما أثر وبشكل كبير عقد قران ابنه هنري في عام 1533م على كاترين دي مدتشي و هي إيطالية لها أطماع سياسية، لأن هذا الزواج يؤدي إلى تدعيم النفوذ الفرنسي في إيطاليا خاصة و أنها كانت من أسرة البابا كلمنت السابع، ما أدى إلى تصعيد التوتر بين الملك و الإمبراطور(1).

بدأت الحرب في هذا الدور في نوفمبر 1535م بسبب و فاة فرانسيسكو سفورزا دوق ميلان، فرغب كل منها ضمها إلى حوزة(2)، أين طالب فرانسوا الأول بدوقية ميلان لزوجة ابنه كاترين دي مدتشي، بينما أصر شارل الخامس على إبعاد النفوذ الفرنسي من شبه الجزيرة الإيطالية، و استأنف الصراع عام 1536م فاحتل فرانسوا الأول سافوري و بيد مونت و تورين ولم تأخذ هذه الحرب طابع الشدة و الضراوة، فتدخل البابا بول الثالث و الملكة اليانور زوجة فرانسوا الأول لوقف العمليات الحربية بعقد هدنة فتم عقد معاهدة نيس Nice في 18 جوان 1538م(3).

شهدت هذه الفترة كذلك التعاون المشترك بين فرانسوا الأول و السلطان سليمان القانوني، فقد كان فرانسوا على حق عندما قال للبابا كليمنت السابع عام 1533م بأن السلطان سيساعده على استرجاع الأراضي التي أخذها منه الإمبراطور شارلكان(4). قام خير الدين في شتاء 1533م و في 1534م و في 1536م، بتنفيذ تلك الخطة أين هاجم الشواطئ و الموانئ الإيطالية و كبدها خسائر جسيمة(5).

في عام 1536م أصبح الحلف الثلاثي رسميا و علنيا، فتم عقد معاهدة سرية بين مبعوث

- 1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص123.
- 2- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 100.
- 3- ماريان حسن مغتاط، المرجع السابق، ص 43.
- 4- حمزة إسحاق زيتوني، المرجع السابق، ص1227.
- 5- عائشة غطاس، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619- 1694)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1984- 1985م، ص 5.

السلطان العثماني وملك فرنسا و بيلرباي الجزائر خير الدين و أطلق عليها اسم المعاهدة الثلاثية، و في جويلية غزا فرانسوا جنوب فرنسا وهدد إقليم بروفانس الفرنسي بجيش قوامه 50000 جندي فاضطر فرانسوا الأول التخلي عن مدينتي أرل Arles ومرسيليا المحصنتين، وفي العام الموالي استنجد بالجزائر مرة أخرى فلبى خير الدين فهدد شواطئ إيطاليا وغزا كروفو بالساحل الدلماشي، وشارك في مواجهة الهجنوت الثائرين على الملك الفرنسي ولقمع الثورة الداخلية بمرسيليا(1).

انشغل شارل الخامس بالمشاكل الداخلية و الخارجية من مجابهة البروتستانت في بلاده ومحاربة خير الدين الذي كان يحكم الجزائر و تونس باسم السلطان سليمان القانوني فكان، يهاجم السواحل الأوروبية في إسبانيا وإيطاليا، ثم بدأ بمهاجمة الحصون الإيطالية على الساحل عند نابلي وغيرها، ولما تقاومت قوته فكر الإمبراطور في شن حملة بحرية على مدينة الجزائر في أكتوبر 1541م فانهزم شر هزيمة إثر عاصفة شديدة هبت بأسطوله(2).

غدت مساعدة الأسطول العثماني أساسية بالنسبة لفرنسا، فبعد هزيمة شرلكان في حملته على الجزائر سارع فرانسوا الأول لتهنئة الجزائر بالانتصار متمسكا بالمساعدات العسكرية الضرورية لإعلان الحرب على خصمه، فانطلق خير الدين على رأس أسطول يتكون من 100 بارجة و 40 غليون لتخليص مدينة نيس مرورا بالسواحل الإيطالية مكبدا إياها خسائر فادحة، و بفصل خير الدين استطاع فرانسوا الأول استرجاع مدينة نيس(3).

قرر تشارلز إعطاء ميلانو لابنه فليب ما دفع بفرانسوا لنقض المعاهدة، فأعلن فرانسوا الأول عليه الحرب في عام 1542م و كانت هذه الحرب الأخيرة بين الطرفين، و كان فرانسوا متحالف مع السلطان العثماني فضعف موقفه و أيدت الشعوب الإمبراطورية الإمبراطور ضده، كما استمال شارل الخامس هنري الثامن للقيام بحرب مشتركة لغزو

1- حمزة إسحاق زيتوني ، المرجع السابق، ص 1227.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 74.

3- عائشة غطاس، المرجع السابق، ص ص 6-7.

فرنسا لكنّ هنري انفراد في محاصرة بولوني Boulogne بدل التقدم نحو باريس(1).
أحرز الجيش الفرنسي الانتصار في معركة سيريزول Crisoles في بيد مونت شمال إيطاليا في 14 أبريل 1544م، و تخوفا من هنري الثامن رأى شارل الخامس أنه من الضروري عقد الصلح مع فرانسوا، لأنه لم يكن مطمئنا لحليفه هنري الثامن لمشاغله الدينية في ألمانيا، و قد أسفرت مفاوضات الصلح عن عقد معاهدة كرسبي Crcspy عام 1544م (2)، وانتهت هذه المرحلة ب وفاة فرانسوا الأول في مارس 1547م وخلفه ابنه هنري الثاني على العرش الفرنسي(3).

د-المرحلة الرابعة (1547- 1552م):

بدأت هذه المرحلة مع اعتلاء هنري الثاني عرش فرنسا الذي كان متزوجا من كاترين دي ميدتشي التي تحكم فلورنسه. كان كاثوليكيًا متعصبًا لكنه نصير البروتستانت في ألمانيا مخالفة لشارل الخامس، و أول ما واجهه عند توليه الحكم هو الانتصار الذي حققه شارل الخامس في معركة مهلبرج Mahlberg في أبريل 1547م ضد الأمراء البروتستانت، و ذلك خوفا من أن تحقق ألمانيا الوحدة الدينية و قيام دولة ألمانية موحدة على الحدود الشمالية الشرقية لفرنسا(4)، و قد رفض هنري الثاني التعاون مع الإمبراطور خوفا من اختلال التوازن الدولي في القارة الأوروبية، كما واجهته مشكلة الصراع القائم بين فرنسا و شارل الخامس و كذا الأطماع الإنجليزية في الشمال، و استولى هنري على ثغر بولون

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 75.

2- لعل أهم ماجاء في معاهدة كرسبي : تترك فرنسا بيدمونت و سافوى، يتنازل الإمبراطور عن إدعاءاته في برجنديا. عقد زواج سياسي بين الدوق أورليان ابن فرانسوا الأول و ابنة الإمبراطور شارل الخامس و تكون الأراضي المنخفضة هي الصداق الذي تقدمه العروس، بينما يقدم الطرف الثاني ميلان. ينظر: عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 101.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 124.

4- نفسه، ص ص 125- 126.

بعدها عقد الصلح في 1550م مع إنجلترا(1).

كما تدهورت العلاقات بين الإمبراطور شارل الخامس و البابا بول الثالث (1534- 1549م)، بعد انتصار الإمبراطور في معركة مهلبرج خشية من أن يقوم هذا الانتصار بتوطيد نفوذ الإمبراطور في أرجاء شبه الجزيرة الإيطالية و إخضاع الكنيسة الولايات البابوية لسلطته(2)، كما أوقعت حركة الإصلاح الديني في ألمانيا بين الإمبراطور والبابا، أين تفاقم هذا التوتر، ففي نظره أساء إلى الكنيسة بإصدار الإمبراطور النظام المؤقت Intern في عام 1548م لإنهاء النزاع الديني في ألمانيا و الذي تضمن بعض التساهل لإرضاء البروتستانت(3).

عمل هنري الثاني على إثارة المتاعب في وجه الإمبراطور، و أخذ يکید له فرفض أن يشترك معه في تأييد مجلس ترنت لتسوية الخلاف الديني بين الكاثوليك و البروتستانت كما شجع البروتستانت، و تدخل إلى جانب الثوار و العصاة ضد الإمبراطور(4).

كان هنري الثاني ملك فرنسا ملكا ذو خبرة عسكرية كبيرة، و كان ذلك سببا في نجاحه هذه المرحلة، فاختار ميدانا جديدا للحرب بعيدا عن شبه الجزيرة الإيطالية و هو نهر الراين و نهر موزيل Moseie أحد فروع نهر الراين، و هو ما يكفل له الحصول على دعم الجماهير الألمانية البروتستانتية و مساعدة الأمراء الألمان، حيث عقد مع هؤلاء الأمراء تحالف في شامبور Chamdonb في جانفي 1552م و وقع عليها موريس ناخب سكسونيا، و بذلك تعتبر اختيارا حقيقيا لسياسة المحافظة على توازن القوى الدولي في أوروبا، و إنقاذ فرنسا من خطر الهابسبورج و تحطيم قوة هذه الأسرة في النهاية(5).

1- ماريا حسن مغتاط، المرجع السابق، ص 45.

2- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 126.

3- عبد العظيم رمضان، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث من منظور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، ج 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م، ص 173.

4- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 104.

5- عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق، ص 127 - 128.

في عام 1551م استأنف هنري الثاني سياسة أبيه بالتدخل عسكرياً في بارما ضد البابا يوليوس الثالث، و بدعم الثوار السياسيين ضد الإمبراطور وكورسكيا الثائرة على الجنوبيين، فاحتل أسقفيات متز و تول و فردان التي عهد إليه حلفاؤه البروتستانت حمايتها و الحفاظ عليها(1).التف الألمان حول الإمبراطور لاسترداد الأسقفيات لكن شارل الخامس ركز على متز رغم قواته التي بلغت 100000 ألف مقاتل من نجدات ألمانيا وإسبانيا و غيرهما.

تمكنت قوات الدوق فرنسوا دي لورين الإطاحة بآمال شارل الخامس ففشل في استرجاع متز(2)، كما استولى موريس ناخب سكسونيا على أوجزبرج و صار يطارد الإمبراطور، فالتجأ إلى حماية أخيه فرديناند الذي كان يحكم في ألمانيا، وسارت الحرب لصالح فرنسا، و هكذا عجز شارل الخامس عن إزالة الوجود الفرنسي في إيطاليا و كان إخفاقه الحربي في متز آخر معركة له(3).

ه-المرحلة الخامسة (1552- 1559م):

حمل فليب الثاني عبئ الصراع ضد فرنسا بعد توليه العرش في عام 1556م وخلف له والده ممتلكات شاسعة في إسبانيا و الأراضي المنخفضة، بلجيكا وهولندا نابولي ميلان في شبه الجزيرة الإيطالية وغيرها من المستعمرات في جزر الهند الغربية و أمريكا الوسطى و أمريكا الجنوبية(4).

لم يتنازل هنري الثاني ملك فرنسا عن تحقيق أطماعه في إيطاليا، فعزم على مواصلة الحرب فكانت لصالحه ما دفع بالإمبراطور إلى طلب عقد صلح مع الفرنسيين، صلح فوسيل Vaucelles في فيفري 1556م، و اقتضت الاعتراف بملكية متز للفرنسيين و بعد

1- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص335.

2- ماريا مغتاز التميمي، المرجع السابق، ص 46.

3- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص ص 128- 129.

4- نفسه، ص 129.

هذه الهدنة قرر شارل الخامس التنازل عن عرش الإمبراطورية لأخيه، و عن إسبانيا لابنه فيليب الذي حمل عبئ الصراع ضد فرنسا ثم عاد إلى إسبانيا(1).

لم تدم هذه الهدنة طويلا فقد عادت الحروب من جديد والتي استمرت سبع سنوات، إلى أن شعر الطرفان بأن هذه الحروب قد أنهكت قواهما و حطمت اقتصادهما و أفنت قوات على مدى ما يقرب 50 عاما دون حصول أي منهما على نصر حاسم، رغم نجاح الإسبان في كسب عدة مواقع في الأيام الأخيرة، لذلك تقرر إنهاء الحروب الإيطالية و ذلك بعقد معاهدة كاتوكمبرسيس (2) Cateau Cambersis في عام 1559م(3).

المبحث الثاني: الإمبراطور شارلكان في مواجهة الحركة الدينية اللوثرية في ألمانيا:

1- أسباب بروز الحركة الدينية في ألمانيا و مظاهرها:

شهدت القرون الثلاثة التي سبقت حركة الإصلاح صراعا بين ملوك أوروبا و الكنيسة، فقد كانت سلطة الكنيسة مطلقة على الحكام و المدنيين فسعى الملوك إلى استرجاع سلطتهم المدنية، حتى بلغ الأمر إلى اضطهاد البابا من طرف بعض الملوك نتيجة انغماس رجال الدين في الملذات و تشيدهم للقصور و حياة البذخو هو ما أضعف سلطة الكنيسة الروحية

- 1- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 103.
- 2- كاتوكمبرسيس Cateau Cabersis : 2- 3 أبريل 1559م لعل أهم ماجاء فيها: فيما يتعلق بالحدود الشمالية الشرقية لفرنسا حصلت فرنسا على هام Ham لوكاتليه La Catelet و تيرونان Terouanne وسان كانتان sanquentin وتنازلت عن بوفين و بويون إلى أسقف ليليج، ومارينبرج Marienburg و تونفيل Tthionville و دامفيلير Damvillers و مونتوميدي Montmedy أما فيما يتعلق بإيطاليا و الحدود الجنوبية الشرقية لفرنسا وافق الفرنسيون على إخلاء موننتفران Monferret، كورسيكا و سافوى، أما الحدود الشرقية لفرنسا ضلت لفرنسا أسقفيان تول و مترز و فردان، و عقد زواجين سياسيين بين فيليب الثاني من ابنة هنري الثاني ملك فرنسا، وبين دوق سافوى و مرجريت شقيقه ملك فرنسا. ينظر: عبد العزيز سليماننوار، المرجع السابق، ص 104. مفيد الزيدي، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر، ج 1، ط 3، دار أسامة النشر و التوزيع، الأردن، عمان، 2009م، ص 454.
- 3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 78.

و مكانتها، و قد تولى بعض المصلحين أمثال جون ويكلف⁽¹⁾ في إنجلترا و جون هس⁽²⁾ في بوهيميا و غيرها انتقاد هذه الممارسات و المفاسد، أين بدأ ينمو شعور ديني عميق بين العامة حول ممارسات الكنيسة التي أصبحت لا تهتم بمهمتها الدينية، فتولد قلق شديد بين العامة و رؤسائهم الدينيين خلال القرنين 14-15م⁽³⁾، و تولد هذا الشعور منذ تولي نيقولا الخامس البابوية و الذي استمر حتى قيام حركة الإصلاح الديني مع مارتن لوثر⁽⁴⁾.

كانت الكنيسة في ألمانيا تسيطر بشكل خطير على مقدرات البلاد منذ أن سادت في العصور الوسطى النظرية القائلة بأن البابا هو ضل الله في الأرض، و التي أعطت له الحق بالتدخل في الشؤون الدينية و السياسية لكل الحكومات باعتبار أن السلطة تأتي من عند الله، و بما أن البابا يمثل سلطة الإله في الأرض كان يتصرف في أملاك الكنيسة التي كانت تملكها في الدول الأوروبية، فيفرض الضرائب على الرعايا و يختار رجال الدين و يقوم بتنصيبهم دون تدخل الدولة⁽⁵⁾.

كانت ألمانيا في هذه الفترة عبارة عن إمارات و دويلات إقطاعية مستقلة، و مدن حرة و أراضي خاضعة للإمبراطورية الرومانية المقدسة و التي كانت في صراعات مستمرة، و تنامت مع الزمن سلطة الأمراء المحليين حيث كان لكل أمير حق سك عملة نقدية خاصة

1- جون و يكلف John Wycliffe (1384-1430م): من أبرز دعاة الإصلاح الديني وهو لاهوتي و مصلح ديني إنجليزي، و قد استاء كثيرا لما وصلت إليه أوضاع رجال الدين في القرن 14 من الانحطاط و دعا للعودة بكنيسة المسيح إلى ما كانت عليه من صفاء و بساطة أيام المسيحية الأولى، و أنكر سلطة البابا إذا تعارضت مع الكتاب المقدس كما اعتقد أن الإنسان يستطيع الحصول على الرحمة و الغفران دون واسطة الكتاب المقدس، و كان هذا الاعتقاد أحد الأسس التي قامت عليها حركة الإصلاح الديني في بداية العصور الحديثة. ينظر: ميلاد. أ المقرحي، تاريخ أوروبا الحديث 1453-1848، ط 1، دار الكتب الوطنية بنغازي، تونس، 1996م، ص ص 80 - 81.

2- جون هس John Huss (1370-1415م) : حصل على إجازة اللاهوت عام 1393م، ثم ماجستير الآداب و كان من أكبر المتحمسين لإصلاح المفاسد التي ظهرت في الكنيسة عن طريق الوعظ و الإرشاد، و قد تأثر بتعاليم جون ويكلف و كان ضد بيع صكوك الغفران، و اتهم بالزندقة و الهرطقة بعد زجه في السجن، و تم إعدامه حرقا في عام 1415م. ينظر: عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 118.

3- أشرف صالح محمد سيد، أصول التاريخ الأوربي الحديث، ط 1. دار وانا للنشر الرقمي، الكويت، 2009م، ص 97.

4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، المرجع السابق، ص 118.

5- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 87.

و جمع الضرائب و تشكيل المحاكم الخاصة و الاستحواذ على الأراضي و المدن القريبة من إقليم كل واحد، ما أدى إلى تدهور الأوضاع الاقتصادية و الحروب الإقطاعية بين هذه الدويلات و تنافس الأمراء و الاهتمام بالبذخ و الترف على حساب الضرائب و الإتاوات التي كان يدفعها الفلاحين، و كان النظام الإقطاعي قد أضعف ألمانيا فتم استغلال الفلاحين و إنقال كاهل الناس بالضرائب(1)، و أصبحت سيطرة الكنيسة تكاد تكون غير محدودة في توجيه الحياة الاجتماعية والاقتصادية و السياسية في أوروبا(2).

ولعل من أهم دوافع و أسباب ظهور الإصلاح الديني مساوئ الكنيسة الكاثوليكية و ممارسات رجالها، فقد كانت تسيطر على حياة الناس و عقولهم ومارست القمع المروع و قضت على العديد منهم عن طريق محاكم التفتيش(3).

شاع انتشار الرذائل في أوساط الكنيسة أين استغل الباباوات سلطتهم الدينية في جلب الثروات، كما كانوا يعينون أقاربهم و أبنائهم في المناصب الدينية دون معرفة و لا ثقافة دينية ما أدى إلى تدهور مستوى الثقافة الدينية في الكنيسة(4)، و من هنا شاع البذخ و الترف في البلاط البابوي و بين كبار رجال الدين، و أخذت الرشوة تنتشر بينهم و شاع بيع المناصب، و تهافت رجال الدين على الحياة الدنيا(5)، و كانت العدالة ضائعة و الغفران يباع و يشتري بالمال فملأهم الجشع و أعماهم عن كل حق(6).

1- مفيد الزبيدي المرجع السابق، ص ص420- 421.

2- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص 83.

3- إياد علي ياسين، "مارتن لوثر: بديعة الإصلاح و نشأة (البروتستانتية)"، مجلة آداب الرفادين، ع51، الموصل، 1429هـ- 2008م، ص 6.

4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص117.

5- عبد المجيد نعنعي، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة و المعاصرة 1453- 1848م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م، ص 51.

6- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 108.

كما مارسوا سلطة تفسير و تطبيق و مراقبة تنفيذ أحكام الدين فملكوا حق الإباحة والتحرير، كما كان الباباوات يستغلون الحروب ضد الدولة العثمانية كحجة لتحقيق مكاسبهم بالخداع و الكذب للحصول على الأموال، فأصبحوا جماعة من المترفين لا يعينهم أمر الكنيسة بقدر ما يعينهم تحقيق مصالحهم الشخصية وذويهم(1).

لعل أسوء مظهر من مظاهر الابتزاز بالأموال هو بيع صكوك الغفران، مما أثار المعارضة و الجدل و ابتداء هذه الصكوك يرجع إلى 1300م، بابتكار البابا بونيفاس السابع Bonieace VII مرسوما بابويا يعرف بالغفران Indulgche ، فإذا اعترف شخص بذنوبه وندم ندما حقيقيا على خطاياہ فإنه يتخلص على عقاب الآخرة و ذلك مقابل هبة مالية(2)، و قد كان البابا يمنح الغفران نظير الحج إلى الأراضي المقدسة أو قراءة كتاب ديني، لكنه تحول إلى وسيلة ناجحة في إثراء الكنيسة وكبار رجال الدين والباباوات(3)، و بهذا أصبحت مسألة صكوك الغفران معركة في سبيل الحصول على المال كان يقوم بها تنزل Tetzel(4) لحساب البابا، والذي كان يشجع هذه العملية لحاجته إلى المال لبناء كنيسة سان بطرس في روما(5).

تعد بدعة صكوك الغفران من الأسباب التي أدت إلى استياء جميع المصلحين الدينيين، و التي امتدت إلى ما يسمى بالاعتراف و ذلك باعتراف المذنب في خلوة مع قسيسه فيغفرله ذنبه نيابة عن الله، و ذلك مقابل تكليفه ببعض الواجبات الدينية بل و أصبح البابا

1- علي ياسين إباد، المرجع السابق، ص7.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 89.

3- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 108.

4- الراهب تنزل: دانز تنزل من مواليد منتصف القرن 15م في ألمانيا، تحصل على البكالوريوس في علم اللاهوت عام 1487م، و بعد سنتين دخل الرهبانية الدومنيكانية، شغل عدة مناصب معلم لاهوتي، عضو في ديوان التفتيش و منح سلطة بيع الغفران فمارسه إلى أن توفي. ينظر: عبد الكريم علي كابان، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ط1، دار دجلة للنشر و التوزيع، الأردن، 2010م، ص 94.

5- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 111.

يمنح الغفران بمجرد المساهمة في إعادة بناء كنيسة القديس بطرس في روما(1)، و هذه الصكوك كانت السبب المباشر في قيام هذه الحركة و التي تزعمها مارتن لوثر(2).
 كان نمو الشعور القومي و قيام الحكومات الملكية القومية دافعا مهما في قيام نهضة الإصلاح الديني، إذ أخذ المجتمع الألماني يتطلع إلى إقامة كنائس قومية خارج سيطرة السلطة البابوية، و تطلع الناس إلى إجراء الطقوس الدينية بلغتهم القومية بدل اللغة اللاتينية لهذا اتخذت المسألة الدينية في ألمانيا من وجهة نظر البابوية مسألة قومية عامة فكان من الطبيعي أن تكون أول ضربات الإصلاح الديني من الأراضي الألمانية(3).
 كان للإنسانيين(4) دور مهم في توعية الناس و تهيئة العقول لقبول فكرة الإصلاح، فانقدوا المظاهر السلبية في الكنيسة و رجال الدين و فسحوا المجال للنقد و حركة التغيير و الإصلاح كما اهتموا بدراسة اللاهوت و العقيدة المسيحية و اتخذت النهضة في ألمانيا طابعا من الإصلاح الديني و حلقات من التراث القديم في الجماعات الألمانية و كانت هذه الحلقات تنقد الفلسفة المدرسة في التعليم الجامعي(5)، كما طالب الإنسانيون بتحرير العلوم من الفكر الكنسي و تحرير الفكر من قيود الكنيسة و اهتموا بالتطور القومي للألمان و دور البابوية في تدهور ألمانيا، ومن أبرز الإنسانيين الذين مهدوا للإصلاح الديني في ألمانيا ديديه إرازمس Didie Erasmus (1466-1536م)(6).

1- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص ص 84- 85.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 88.

3- علي ياسين إباد، المرجع السابق، ص 9.

4- الإنسانيون: " الحركة الإنسانية": هم مفكرون كرسوا جهودهم لمحاكاة الأدب اليونانية و الرومانية، بدأت في إيطاليا و أهم ما قامت به هو البحث عن المخطوطات القديمة (إغريقية- لاتينية- عربية)، و كان زعيم الحركة و مؤسسها بترارك و هو أدبي تعصب لللاتينية و ينتسب إليه الفضل في إحياء الدراسات اللاتينية. ينظر: عبد اللطيف الصباغ، تاريخ أوروبا الحديث، ص 12.

5- مفدي الزبيدي، المرجع السابق، ص ص 419 - 420.

6- ديديه إرازمس (1466-1536م): راهب كاتوليكي و أستاذ في العلوم الإنسانية ولد بمدينة روتردام الهولندية، كان مولعا بالإصلاح الديني، و قضى سنوات عدة في ألمانيا، و قد درس نتائج الإنسانيين الألمان و الكتابات القديمة و كان فكرة مرتبط بالإنسانيين الألمان أدت ترجمته للإنجيل و كتابات آباء الكنيسة من اليونانية إلى اللاتينية دورا بارزا في الحياة الثقافية، و وجه انتقادات لاذغة لرجال الدين و دعا إلى ضرورة إصلاح الكنيسة من الداخل، ينظر: علي ياسين إباد المرجع السابق، ص 10.

و الذي كان له الفضل الأكبر، و كذا Euhem Reuchilin يوهان ريوخلن(1455-1522م)⁽¹⁾ و أولريخ فون هوتن⁽²⁾ Vlnich Von Hutten (1488-1523م)⁽³⁾.

بدأت حركة الإصلاح الديني بقوة في ألمانيا خلال القرن 16م، انطلاقاً من الإمارات الإيطالية في بادئ الأمر، و هناك حملة من الأسباب التي تفسر بداية الإصلاح في ألمانيا قبل غيرها، و هي ظهور طبقة الفلاحين التي كانت حقلاً خصبا للذهب من الطبقات الأخرى حيث كانت تعاني من التدهور الاقتصادي الذي حل على الزراعة، فكانت مجالاً سهلاً لرجال الدين لفرض الرسوم المختلفة فاتخذوا من الإصلاح الديني فرصة لإنقاذ أنفسهم من الظلم و الجور⁽⁴⁾، وطبقة الفرسان الذين كانوا يعملون في خدمة الأمراء و نظراً لتقلص المصالح الإقطاعية ثم الاستغناء عنهم، فكانوا على استعداد للثورة في أي وقت اعتراضاً على الأوضاع التي كانت تشهدها البلاد⁽⁵⁾.

طبقة البورجوازية التي كانت تعمل في مجال التجارة و الصناعة و امتلكت ثروة ضخمة، حتى حلت محل طبقة الأمراء في توجيه حكم ألمانيا، فكانت تلجأ إلى رجال الدين لمواجهة الإمبراطور و ذلك لتدعيم مركزها و حماية نفسها، و هذا دفع برجال الدين إلى استغلال الوضع لفرض الضرائب التي أثقلت كاهل الشعب⁽⁶⁾.

1- روهان ريوخلن(1455-1522م): إنساني ينتمي إلى الحركة الإنسانية وهو متخصص في الدراسة العبرية ترجم الجزء الخاص بالعهد القديم، و أثار بكتاباتة ضجة من الجدل حول مفاصد الكنيسة، و انتقد الخرافات و البدع التي أحاط بها رجال الدين. ينظر: عبد العزيز نوار، المرجع السابق، ص118.

2- أولريخ فون هوتن(1488-1523م): بعد هروبه من الدير اختار تكريس نفسه للحركة الإنسانية، و هاجم البابوية بعد زيارته لروما في 1513م، و سخر من صكوك الغفران و دعم حركة لوثر و انتفاضة الفرسان. ينظر: علي ياسين إياد، المرجع السابق، ص 11.

3- نفسه، ص ص 9 - 10 - 11.

4- عبد الحفيظ موسم، "واقع الإصلاح الديني في ألمانيا من اللوثرية الألمانية إلى البروتستانتية الأوروبية"، مجلة متون، م 14، ع 1، الجزائر، 26-02-2021م، ص 70.

5- عبد اللطيف الصباغ، المرجع السابق، ص 27.

6- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 119.

ضف إلى ذلك الصراع بين الإمبراطور و البابوية فكثيرا ما نشأت صراعات بين الكنيسة و الإمبراطورية كالصراع الذي وقع بين الإمبراطور هنري الرابع والبابا جريجوري السابع، ولهذه الأسباب نشأت كراهية الشعب الألماني لكنيسة روما(1).

ظهرت في الغرب منذ بداية القرن 14 م ما يعرف بالنهضة، و التي دعت إلى الاهتمام بالحضارات القديمة و دراسة آدابها و تاريخها و فلسفتها ما أثر بشكل كبير على النصرانية، فالاهتمام باللغات القديمة كالعربية و اليونانية مكن العلماء من قراءة النصوص المقدسة و دراسة الفترة النصرانية المبكرة و عرف العلماء كيف تغيرت الكنيسة(2).

لقد أسفرت هذه النهضة عن اختراع الطباعة في عام 1450م بواسطة جوتنبرغ في ألمانيا، ثم انتشرت في إيطاليا و فرنسا وإسبانيا و إنجلترا وغيرها و سيطر الألمان على المطابع في تلك البلدان تقريبا، فبدأ الناس يهتمون بالكتب خاصة الدينية منها(3) و هو ما ساعد على نشر الكتاب المقدس، و بدأ الرعايا في قراءته و اكتشفوا المخالفات و التناقضات فيما كان يرويه عليهم رجال الدين(4).

2- نبذة عن مارتن لوثر:

ولد مارتن لوثر في 10 نوفمبر 1484م في بلدة إيزليبين في مقاطعة سكسونيا بألمانيا(5) في أسرة فقيرة، و قد تربى لوثر طبقا للتعليم الكاثوليكي السائد آنذاك.

أحق بالدراسة الابتدائية في مانسفيلد ثم انتقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية و هو لا يزال في سن الثالثة عشر، وفي عام 1498م دخل مدرسة الفرنسيكان بمدينة إيزيناخ الألمانية لمواصلة تعليمه. دخل جامعة أرفورت و بعد حصوله على البكالوريوس

1- عبد الحفيظ موسم، المرجع السابق، ص 70.

2- أشرف صالح محمد سيد، المرجع السابق، ص ص 97- 98.

3- عبد الحفيظ موسم، المرجع السابق، ص 70.

4- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 120.

5- أشرف صالح محمد السيد، المرجع السابق، ص99.

بدأ التحضير للماجستير في الأدب و تحصل على الشهادة في عام 1515م⁽¹⁾، بعد ذلك التحق بالجامعة من جديد لدراسة القانون⁽²⁾، و في عام 1515م انخرط فجأة في سلك الرهبة، و تفرغ لمدة ثلاث سنوات للزهد و العبادة، ثم تحصل على شهادة الدكتوراه في علم اللاهوت و استدعي للتدريس في جامعة فتنبرغ لتدريس الفلسفة و اللاهوت⁽³⁾.
نشأ في بيئة صعبة و قاسية انتشرت فيها الخرافات الدينية و المعتقدات الزائفة التي صورت المسيح في صورة المنتقم الجبار، فتملكه القلق و الإحساس بالرغبة في الانتقام الإلهي، و لم تقنعه الوسائل التي كانت الكنيسة تقدمها لتهدئة عذابه النفسي⁽⁴⁾.
استطاع بفضل تدريسه في الجامعة أن يجلب الانتباه فالتف حوله الرواد من تلاميذه المعجبين بأرائه و تأملاته، فعبر عن حياة الفلاح و بؤسه و معاناة العامل و عوزة، ثم عاش حياة القصور و الرخاء، و بحكم عمله في الجامعة و أفكاره الجريئة أصبح جليس العديد من الأمراء الألمان، كما امتاز بمميزات الخلق الألماني و قوة الشخصية و الثقة بالنفس و القدرة على التأثير في الغير⁽⁵⁾.

3- مبادئ و أفكار مارتن لوثر في حركته الإصلاحية و الحركات المتطرفة المصاحبة لها:

أ- مبادئ و أفكار مارتن لوثر:

أتيحت لمارتن لوثر في عام 1511م فرصة لزيارة روما بصفته ممثلاً لطائفة القديس أوغسطين، فزار الأماكن المقدسة فيها، وكانت هذه الزيارة محور تحول خطير في حياته فهاله انهيار المعايير الأخلاقية لدى رجال الدين و قدعلق على ذلك بقوله: " أن كل من يذهب

1- عبد الكريم علي كابان، المرجع السابق، ص ص 90 - 91.

2- برون جفري، تاريخ أوروبا الحديث، تر:علي المزروقي، ط 1، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 2006م، ص 184.

3- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص 56.

4- عبد الحفيظ موسم، المرجع السابق، ص 70.

5- نفسه، ص 71.

إلى روما يشعر بأن عقيدته الدينية تترنح تحت الضربات التي تصيبه من جراء ما يرى هناك⁽¹⁾.

انتهز لوثر وجوده في روما فتعمق في دراسة الكتاب المقدس، فظل يقرأ و يفكر و يتأمل حتى اهتدى إلى العقيدة التي بعثت في نفسه الهدوء و الرضا و الطمأنينة، فرأى أن الإيمان المطلق برحمة الله يكفل النجاة من عقابه و أن الصلاة و العبادة و أداء الشعائر و الطقوس ليست كافية للخلاص من الخطايا، و إنما بإسداء الحمد و الشكر من قلب ظاهر سليم إلى الله و سميت بعقيدة التبرير بالإيمان⁽²⁾.

بعد هذا عاش لوثر مطمئنا لبضع سنوات يبشر بها بين تلاميذه دون تدخل من السلطة أو الكنيسة، إلى أن أعلن مبادئه و آراءه التي كان لها الأثر البالغ في مجرى التاريخ الأوروبي⁽³⁾.

بدأ لوثر أولى خطواته الإصلاحية في عام 1517م، أين تصدى للراهب الذي أرسلته البابوية في ألمانيا لبيع صكوك الغفران لجمع المال من أجل إصلاح كنيسة القديس بطرس⁽⁴⁾، فدخل في مناقشات علنية مع يوحنا تنزل حول الغفران و بأنه يكون بالندم و التوبة و الاعتراف و الجزاء و التفكير عن طريق الصلاة و الصوم، إلا أن الباباوات ربطوا ذلك بالاشتراك في حرب صليبية أو الحج إلى روما، و كذا زيارة قبور القديسينو تقديم الهبات و الصدقات على أرواح الأموات، و تحولت المسألة إلى مسألة اقتصادية و تم تخصيص بنوك لجمع هذه الهبات، وكانت هذه الصكوك السبيل إلى الانحلال فيرتكب الفرد الجرائم و الرذائل ثم يشتري صك الغفران حتى يغفر له⁽⁵⁾.

- 1- عمر عبدالعزيز عمر، المرجع السابق، ص 152.
- 2- عبد الكريم علي كابان، المرجع السابق، ص 93- 94.
- 3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 90 - 91.
- 4- عبد المجيد نعنعي، المرجع السابق، ص 57.
- 5- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 121- 122.

انتهز لوثر فرصة اجتماع الناس في كنيسة فتنبرج في أول نوفمبر 1517م للاحتفال بيوم الشهداء، فعلق على باب الكنيسة احتجاجاً طويلاً يتألف من 95 مادة ضد صكوك الغفران، ولقد تعرض لوثر إلى النقد اللاذع لنظام الكنيسة ولسلطتها العليا و تعاليمها أثناء جداله مع تنزل و مؤيدي الكنيسة، و أعلن بأن الكتاب المقدس وحده القانون في تفسير العقائد والمسائل المختلفة و أن البابا ليس له الحق في احتكار تفسيره وباستطاعة المثقف قراءته وله الحرية في تفسيره (1).

أكد لوثر بأن الروح ستجد طريقها مباشرة إما إلى الجنة أو النار، و هي ليست بحاجة إلى صكوك الغفران بل تحتاج إلى الرحمة الإلهية، مؤكداً حجته بما جاء في الإنجيل "أما البار بالإيمان يحيا"(2).

بعد فشل محاولات إصلاح الكنيسة المتكررة من الداخل أدرك لوثر في عام 1511م أن الكنيسة لا بد من إصلاحها من الخارج، فدعا الولايات الألمانية من الأمراء ليتزعموا هذه الحركة الإصلاحية، فرحبوا بالفكرة و ذلك للمكاسب المادية و السياسية بعد أن حدد لوثر مبادئ الإصلاح الديني(3)(4).

لقد لاقت آراء لوثر الرضا و التف حولهُ الأتباع الساخظون على تصرفات الكنيسة في روما و سيطرة البابا و ادعائه بأنه واسطة الغفران عند الله، كما عبأ الرأي العام بسلسلة من الكتابات الدينية حول تغيير العقيدة الجديدة، و دعا الناس للبحث عن الحقيقة في الكتاب

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 91 .

2- هريبرت فيشر، المرجع السابق، ص 114.

3- تمثلت مبادئ الإصلاح الديني في: إخضاع رجال الدين للسلطة المدنية، و أن البابا ليس له الحق في احتكار تفسير الكتاب المقدس و لا في إصدار صكوك الغفران. إباحة الزواج للقس و الطلاق للمسيحيين، و إلغاء بعض الأديرة القائمة و منع إنشاء أديرة جديدة و التقليل من الأعباء لأنها تؤخر الأعمال اليومية وإصلاح الجامعات بإلغاء دراسة أرسطو من مناهجها. ينظر: عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص ص 122 - 123. جفري برون، المرجع السابق، ص 186.

4- أشرف صالح محمد سيد، المرجع السابق، ص 101.

فيما يخص إدعاءات الإكليروس (1).

ب- الحركات المتطرفة التي صاحبت حركة الإصلاح الديني اللوثري:

في 3 ديسمبر 1529م دخل بعض الطلبة و سكان المدينة إلى كنيسة الأبرشية بيتنبرج وهم مسلحون، فطردوا القساوسة من المذابح و اعتدوا على المصلين، لكن لوثر كان ضد العنف ودعا إلى نبذه لكسب النبلاء وهو الأصح لنجاح الإصلاح.

1- حركة الأنابابتين Anabaptists (إعادة التعميد) 1521م: (2)

نشأت هذه الحركة في ترفيكا و في سكسونيا عام 1521م على يد جماعة متطرفة من أنصار لوثر على رأسهم توماس مونزير Munzer (3). ثم اتخذوا من مدينة مونستر مركزالنشاطهم و انضم إليهم الفقراء و البائسين (4)، فأحدثوا اضطرابات و اعتداءات جعلت لوثر يخرج من مخبئه ليدعوهم إلى الالتزام بالهدوء و الحكمة (5)، فتعاون الأمراء البروتستانت مع الهيئات الدينية وتخلصوا من هذه الحركة في جوان 1535م (6).

2- حركة الفرسان Mov Des Chenaliers 1522م:

تمثل هذه الحرب الحركة المتطرفة الثانية المصاحبة للإصلاح الديني اللوثري (7). كانت لهذه الطبقة امتيازات و موارد مالية ضخمة تكتسبها من الحروب في عهد الأنظمة

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 91.

2- إعادة التعميد: التعميد هو تغطيس الطفل ثلاث 3 مرات في الماء على اسم الثالوث المقدس (الأب، الابن، الروح القدس)، فهذه الطائفة رأت أن تعميده في سن مبكرة لا يتماشى مع تعاليم الإنجيل فطالبوا بإعادة تعميده عند بلوغ الحلم لأن الأطفال و لدوا بلا ذنوب. ينظر: عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 161.

3- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 123.

4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 161.

5- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 124.

6- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 161.

7- أشرف صالح محمد سيد، المرجع السابق، ص 105.

الإقطاعية، و مع انحلال هذا النظام في ألمانيا فقدت امتيازاتها و مكانتها(1)، و قد دفعهم سوء حالهم إلى إظهار القوة و البطش حيث ابتز بعضهم أموال التجار و هاجموا أراضي الفلاحين لنهب محاصيلهم، واستغلت هذه الطبقة تصدع الكنيسة مع ظهور دعوة لوثر لاسترداد نفوذهم و ثرائهم، فقاموا بثورة عارمة مستغلين الإصلاح الديني(2).

ثارالفرسان على طبقة البورجوازيين و الإكليركيين في 23 أوت 1522م، و اقتحموا الكنائس و الأديرة مستغلين غياب الإمبراطور(3) و حطموا ما كانت تزخر به من تماثيل وصور، و قد تزعم هذه الحركة فارسان و هما فرانزفون سيكتجن Frenz Von Sickingen و الريك فون هوتن Ulnichvon Hutten و قاما بوضع خطة حربية للهجوم على مدينة ترير فامتنع لوثر على تأييد هذه الحركة التي انتهت بالفشل(4).

تأثرت الحركة اللوثرية بهذه الأحداث رغم معارضة لوثر للثورة المسلحة، و اعتبرته السلطة الألمانية مسؤولاً عن هذه الأحداث و أصبح الأمراء من أعداء الثورة خوفاً من حدوث انقسام بين طبقات الشعب الألماني(5).

3- ثورة الفلاحين:

كانت طبقة الفلاحين في ألمانيا تعاني من الأوضاع الاجتماعية و الإقتصادية المزرية، من فرض الضرائب من الأمراء و رجال الدين و الإقطاعيون و حرمانهم من ثمار كدهم، كما حرّموا من صيد الأسماك و الحيوانات(6).

1- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 124.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 93.

3- إياد علي ياسين، المرجع السابق، ص 25.

4- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 162.

5- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 94.

6- نفسه، ص 94.

كانت هذه الحركة أعنف الحركات الثلاث، و لم تكن الأولى من نوعها في ألمانيا فقد سبقتها ثورات قبل ظهور الحركة اللوثرية ضد المظالم المرتكبة في حقهم(1)، و جاءت هذه الحركة في الوقت الذي تفاقم فيه التذمر و السخط بين الفلاحين اتجاه السلطات القائمة(2). وجدت حركة لوثر إقبالا شديدا لدى الفلاحين، لأنها تدعوا إلى الحرية و الإخاء و إلى مبادئ تكاد تكون هجومية على الكنيسة الكاثوليكية، و هو ما أدى إلى انضمام الكثير منهم إلى الحركة تدمرا من الأثقال المالية التي كانت تفرضها الكنيسة، و أصبحتعاليم و أفكار لوثر محركا للفلاحين(3)، وتخلصت مبادئ الفلاحين في 12 مبدأ بموجبها منحوا لأنفسهم حرية انتخاب رعاياهم و إلغاء الرق و العشور والغرامة على الإرث و حق الصيد، و أقرنوا كل مطلب بأية من الكتاب المقدس و صيغت هذه المبادئ في مارس 1525م فاشتعل لهيب الثورة في ألمانيا(4).

بدأت الثورة في الجنوب الغربي من الغابة السوداء، لكن سرعان ما انتشرت على نطاق واسع و بلغت نفوذها إلى الأقاليم الواقعة في الجنوب الغربي من ألمانيا و في الحوض الأعلى لنهر الراين و حوض الدانوب الأعلى، ثم صوب الشرق في إقليم التيرول ثم امتدت إلى الشمال في الأراضي السكسونية(5)، و انتهز توماس مونزير و هو أحد زعماء الإصلاح هيجان الفلاحين فنصب نفسه زعيما للثورة، و كان يحمل أفكارا راديكالية ذات طابع يساري اجتماعي، هاجم فيها الإقطاعيين و النبلاء و رجال الدين(6).

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 163.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 94.

3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 126.

4- أشرف صالح محمد سيد، المرجع السابق، ص 106 - 107.

5- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 164.

6- علي ياسين إيد، المرجع السابق، ص 29.

انزعج لوثر من هذه الثورة و رأى بأنها تهدد حركته الإصلاحية، لأن مطالبهم اقتصادية مادية و اجتماعية و هي مطالب لا تمت بصلة لحركته الإصلاحية الدينية⁽¹⁾، و قد ترتب عن موقفه تحالف ثلاث قوى عسكرية النبلاء و الفرسان و قوات الإمبراطور شارل الخامس، إذ هزموا في معركة فرانكينها وسن Frankehla Usne في ماي 1525م، و تم القضاء على هذه المعركة تماما و ثم إعدام مونزير و غيره من قادة الثورة⁽²⁾.

أخفقت هذه الثورة لعدم و جود قوة متكافئة بين الطرفين، و كان موقف لوثر المعادي للحركة عامل كبير في فشلها، و وصفهم بأنهم الفلاحين المخربون الذين يسفكون الدماء، و أدت هذه الحركة إلى إتلاف المال و الرجال فلم تفقد ألمانيا من الأرواح و الأملاك ما فقدته في هذه الثورة إلا في حرب الثلاثين عاما (1615- 1648م)⁽³⁾، فقتل أكثر من 1300 فلاح، و دمر الفلاحون عدد كبير من القلاع و الأديرة و خربوا القرى و تشتت ما يزيد عن 5000 و ترملت النساء و تيتيم الأطفال⁽⁴⁾.

فشل هذه الحركة وضع حركة الإصلاح الديني في خطر أين حاولت الكنيسة استعادة نفوذها و هيمنتها من جديد في ألمانيا⁽⁵⁾.

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 165.

2- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 128.

3- حرب الثلاثين عاما(1615- 1648م): هي سلسلة صراعات دامية مزقت أوروبا ما بين (1618- 1648م)، و وقعت معاركها في أراضي أوروبا الوسطى خاصة أراضي ألمانيا الحالية، اشتركت فيها معظم القوى الأوروبية سوى إنجلترا و روسيا و في الجزء الثاني من الحرب امتدت المعارك إلى فرنسا و الأراضي المنخفضة و شمال إيطاليا، في البداية اندلعت كصراع ديني بين الكاثوليك و البروتستانت و انتهت كصراع سياسي من أجل السيطرة على الدول الأخرى بين فرنسا و النمسا. ينظر: نجاة سليم محمود محاسيس، المرجع السابق، ص 154.

4- علي ياسين إباد، المرجع السابق، ص ص 30- 31.

5- مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 427.

4- موقف الإمبراطور شارل الخامس من حركة الإصلاح الديني في ألمانيا:

أ- المرحلة الأولى:

بعد انتهاء البابا من انتخاب الإمبراطور الجديد، و بعد ثلاث سنوات من تعليق لوثر لقراراته و مبادئه أصدر البابا ليو العاشر في ديسمبر 1520م قرار الحرمان ضد لوثر⁽¹⁾، فرد بكتابة ثلاث رسائل تسمى الرسائل الثلاث العظمى في حركة الإصلاح الديني، و كانت الرسالة الأولى بعنوان " إلى هيئة النبلاء المسيحيين من الأمة الألمانية بصدد إصلاح العالم المسيحي"، دعا فيها إلى إصلاح الكنيسة بأنفسهم بدل الاعتماد على رجال الكنيسة و هو ما يعرف بإصلاح الكنيسة من الخارج، أما الرسالة الثانية بعنوان "حرية الرجل المسيحي" باللغة اللاتينية موجهة إلى البابا ليو العاشر على أنها نداء للسلام، و كانت الرسالة الثالثة كذلك باللغة اللاتينية بعنوان " مقدمة عن الأسر البابلي الكنسي" و جهها لرجال الفقه الديني⁽²⁾.

كان رد فعل لوثر أن أحرق قرار الحرمان علانية في ساحة و تنبرج، و بذلك انقطعت الصلة بينة و بين الكنيسة فطلب البابا من الإمبراطور بإلقاء القبض عليه و قمع حركته و تنفيذ قرار الحرمان ضده، و اعتبره مارقا خارجا عن المسيحية فاستدعي للمثول أمام مجلس يمثل الإمبراطورية في مدينة ورمس في جانفي 1521م لمحاكمته⁽³⁾، و في هذه الظروف العصيبة أصبح لوثر يملك أمراء و أتباع أقوياء و أغنياء و الذين أوجدوا له الحماية السياسية و العسكرية اللازمة، في مقدمتهم حاكم سكسونيا الذي ساند حركته بشدة⁽⁴⁾.
خاطبه قاضي قضاة تريفس بصوت جمهوري أولا باللغة اللاتينية ثم باللغة الألمانية، " يا مارتين لوثر، أنت مدعو من صاحب الجلالة الإمبراطور لأن تجيب على سؤاليين،

1- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 123.

2- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 156.

3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 92.

4- عبد الحفيظ موسم، المرجع السابق، ص 79.

أولاً: هل تتعرف بأن هذه الكتب (مشيرا إلى حوالي عشرين مجلدا موضوعة على طاولة) هي من تأليفك؟، ثانيا هل أنت مستعد أن تسحب هذه الكتب و محتوياتها؟ أم تصر على الآراء التي ضمنها إياها؟، فأجاب لوثر بأنه فيما يتعلق بالسؤال الأول يعترف في غير شك بأنه هو الكاتب و لن ينكر واحدا منها، أما فيما يتعلق بالسؤال الثاني فإنه يلتمس مهلة للتأمل حتى يستطيع أن يسوغ إجابة بكيفية لا تهين كلمته و لا تضر نفسه و على هذا منحوه مهلة يوما واحدا⁽¹⁾.

وقف لوثر ثانية أمام المجلس بعدما قضى اليوم الذي منح له للتفكير⁽²⁾ فكان جوابه " لا يمكنني العدول أو التراجع عن كل ما كتبتة أو قتله إلا بشرط واحد هو أن يبين أحدكم أنقوالي و كتاباتي تناقض الكتب المقدسة أو تناقض مبادئ العقل و الضمير، و أن تثبتوا لي بأنها غير سليمة و غير مستقيمة"⁽³⁾.

بعد إصرار لوثر على آرائه ازداد أتباعه و أعوانه، فنزل تحت حماية أمير سكسونيا الذي شجعه و منحه قلعة و ينتبرج للإقامة فيها، و هناك تفرغ لترجمة الكتاب المقدس للغة الألمانية⁽⁴⁾، و قد نتج عن إصراره على أفكاره إصدار الإمبراطور قرار الحرمان في مجلس ورمس في عام 1521م، أين اعتبر لوثر طريدا خارجا عن القانون و دما مهدورا⁽⁵⁾.

ب- المرحلة الثانية:

لم يكن الإمبراطور شارل الخامس مسترشدا بواجبه الديني بقدر تأثره بالموقف السياسي للإمبراطورية في أوروبا، حيث كان على صراع مع فرانسوا الأول كما أن

1- أندرو ملر، مختصر تاريخ الكنيسة، ط، مكتبة المهتدين، مصر 2003م، ص 449.

2- نفسه، ص 450.

3- أشرف صالح محمد سيد، المرجع السابق، ص 102.

4- يحي جلال، أوربا في العصور الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1981م، ص 443.

5- عبد الفتاح أبو علي، إسماعيل أحمد ياغي، تاريخ أوربا الحديث و المعاصر، ط 3، دار المريخ للنشر، المملكة

العربية السعودية، 1993م، ص 93.

الحركة اللوثرية انتشرت في الوقت الذي كان فيه الأتراك يهددون ممتلكات الإمبراطورية في النمسا و المجر، فكان الإمبراطور يوجه انشغالاته و قواته في النضال الخارجي أما داخليا اكتفى بمحاولة تهدئة الأوضاع في ألمانيا⁽¹⁾، وظل لمدة طويلة من الزمن غير قادر على اتخاذ موقف لحسم الحركة اللوثرية في ألمانيا⁽²⁾.

أحس الإمبراطور أن انقساماً دينياً سيحدث في الإمبراطورية الرومانية المقدسة وخاصة في الولايات الألمانية، فدعا لعقد مجلس إمبراطوري في جوان 1526م في مدينة سبير في بافاريا، للفصل في المسألة الدينية و إعادة النظر في موضوع الحرمان الذي صدر ضد لوثر، و قد ترأس هذه المجلس أخ الإمبراطور فرديناند ملك النمسا⁽³⁾.

أصدر المجلس الإمبراطوري قراراً ينص أن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الديني الذي يناسبه، و لم يكن هذا القرار في صالح الكنيسة الكاثوليكية، فقد أصبح لأتباع لوثر مركز شرعي و استولى الأمراء في ولاياتهم على أملاك الكنيسة بعدما اختاروا المذهب اللوثرى⁽⁴⁾، كما أصدر المجلس قراراً آخر يتمثل في ضرورة عقد مجلس أو جمعية وطنية لحل الأزمة الدينية المتسببة في ظهور الحركة اللوثرية⁽⁵⁾.

ج- المرحلة الثالثة:

أمام استمرار المشكلة الدينية قرر الإمبراطور شارل الخامس إعادة النظر فيما آلت إليه أحوال البلاد بسبب انتشار اللوثرية و الانقسام الذي يهدد الإمبراطورية⁽⁶⁾، و بدأت هذه المرحلة بعدما نهبت جيوش الإمبراطور روما ما دفع بالبابا قبول الصلح فدعا الإمبراطور إلى عقد مجلس آخر في بلدة سبير في فيفري 1529م، و تقرر فيه تنفيذ قرارات

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 96.

2- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص 91.

3- عبد الفتاح أبوعلية، المرجع السابق، ص 95.

4- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص 92.

5- عبد الفتاح أبوعلية، المرجع السابق، ص 95.

6- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 67.

مجمع ورمس(1) بشأن لوثر و قمع حركته، كما قرر المجلس إلغاء الحرية التي منحت للأمرء في مجلس سبير الأول في اختيار المذهب الذي يريدونه في ولاياتهم مع الإبقاء على الكنائس اللوثرية التي أقامها اللوثرين(2).

أزعجت تلك القرارات الأمرء اللوثرين لأن اختيارهم للمذهب الجديد مكنهم من الاستيلاء على أراضي الكنيسة الكاثوليكية في بلادهم، و بتنفيذ قرارات سبير الثاني ستصادر الأراضي التي استولوا عليها ويتم حرمانهم من الثروة(3)، وقد احتج اللوثرين على هذه القرارات، فأطلق عليهم اسم البروتستانت Protestants(4) في الوقت الذي كان الإمبراطور يفكر في تكوين لجنة للبحث في أصول اللوثرية(5).

ج- المرحلة الرابعة:

حاول الإمبراطور حل النزاع الديني بالطرق السلمية خشية من حدوث حرب أهلية وهو في ظروف لا تسمح له بذلك، لأنه منشغل في محاربة العثمانيين لتوحيد العالم المسيحي ضدهم، فدعا البروتستانت للاجتماع في مدينة أوجزبرج في جوان 1530م لحل النزاع و الخلاف الديني القائم(6)، و صادف هذا التاريخ عقد الإمبراطور صلح كامبري و الذي أراحه مؤقتا من حروبه ضد فرنسا، فحضر إلى ألمانيا و ترأس المجلس بنفسه، و كان موقفه من هذا المجلس موقف حيرة و تردد لتمسك كل من الطرفين بآرائه(7).

1- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 130.

2- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص 92.

3- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 98.

4- البروتستانت: هي كلمة مشتقة من الكلمة اللاتينية Protesta وتعني الإحتجاج و الرفض، استخدمت لأول مرة بهذا المعنى في عام 1526م في مجلس سبير الذي صدر فيه تنفيذ قرارات مجمع ورمس في حق اللوثرين، و من ثم استعمل للدلالة على جميع مؤيدي حركة الإصلاح الديني. ينظر: عبد الكريم علي كابان، المرجع السابق، ص ص 117 - 118.

5- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 128.

6- عبد الفتاح أبو عليّة، المرجع السابق، ص 97.

7- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 98.

وضع فليب ملانتكوت مبادئ العقيدة اللوثرية بكل اعتدال سميت باعتراف أوجزبرج، لكن الإمبراطور انحاز إلى رجال الدين الكاثوليك فرفض المجلس هذا الاعتراف، و أصدر الإمبراطور قرار تنفيذ قرارات مجلس ورمس الأول عام 1521م للقضاء على البروتستانتية⁽¹⁾.

أعطى الإمبراطور البروتستانتية مهلة للتفكير ليتخلوا عن آرائهم حقنا للدماء، فرد البروتستانت بتأليف حلف شمالكالديك Shhmalkalic Ledyue في عام 1531م للدفاع عن مصالحهم⁽²⁾، فقرروا تكوين جيش نظامي بالاشتراك مع أمير سكسونيا في الولاية الألمانية إضافة إلى حكام ولايات ألمانية أخرى تقع في الشمال و الجنوب، بل و تحالفوا مع ملك فرنسا فرانسوا الأول الذي كان في حرب مع الإمبراطور، و كان هذا الحلف نواة البروتستانتية أين أصبحت ذات تنظيم سياسي و عسكري، و ذات كنيسة و عقيدة ثابتة⁽³⁾ و قويت عزائمهم، فاجتمعوا مرة أخرى في شمالكالديك في 19 فيفري 1531م لتجديد ما تعهدوا عليه، و استعانوا بفرانسوا الأول ملك فرنسا و هنري الثامن ملك إنجلترا لعداوتهما مع الإمبراطور شارل الخامس⁽⁴⁾.

ه-المرحلة الخامسة:

شكل الأمراء الكاثوليك حلف ضد البروتستانت حلفنورمبرج Nue Mbergleague عام 1539م، فعزم الإمبراطور على حل الخلاف بطرق سلمية فعقد مجلس في راتيزبون Ratisbon عام 1541م لحل الخلاف، لكن هذا المجلس لم يتوصل إلى حل. ترتب عن ذلك إعلان الإمارات الإيطالية فارتبرج و بادن و هيس و براندنبرج انضمامها إلى المذهب

1- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 168 - 169.

2- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 130.

3- ميلاد أ. المقرحي، المرجع السابق، ص 92 - 39.

4- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 100.

اللوثري(1)، و هو ما دفع البابا بول الثالث إلى عقد مجلس ديني يجمع بين الكاثوليك و البروتستانت في مدينة ترنت عام 1545م(2)، و بما أنه كان تحت سيطرة الكاثوليك رفض البروتستانت الانضمام و الاشتراك فيه، ما دفع بالإمبراطور شارلكان استخدام القوة لإنهاء هذا الانقسام الديني الذي يهدد أملاكه(3)، و في هذه الأثناء توفي لوثر في 17 فيفري 1546م و انقسم البروتستانت بعد وفاته، فانحاز دوق سكسونيا إلى جانب الإمبراطور(4). اندلعت الحرب بين الجيش الإمبراطوري و عصابة شمالكالديك في أوت 1546م، و بلغت قوات شارل الخامس 40000 رجل بقيادة الدوق ألبا alva أما الجيش اللوثري بلغ 60000 رجل، و بالرغم من تفوق قوات الجيش اللوثري تقريبا بنسبة 50 % عن قوات شارل الخامس امتنعوا من الهجوم، و حاولوا قطع التعزيزات الإمبراطورية عن الأراضي المنخفضة لأن كونت منطقة بورنBuren انضم إلى قوات الجيش الإمبراطوري، و قد تفرقت قوات الجيش الإمبراطوري بسبب عدم الدفع المالي(5).

في ربيع عام 1547م جهز ناخب سكسونيا جيشا للدفاع عن اللوثرية و عبر شارل الخامس مقاطعة سكسونيا و معه 25000 رجل، و انتصر انتصارا هائلا على الأمراء البروتستانت في معركة ميلبريك Muhlerg في 24 أبريل 1547م مبرهنا بانتصاره هذا على ذروة قوته(6)، و ألقى القبض على أمير سكسونيا ثم استسلم هيس، و تم القضاء على حلف شمالكالديك(7) و أصبحت إسبانيا بأسرها في قبضة الإمبراطور، و بدل من تحطيم المذهب اللوثري اتبع من جديد أسلوب اللين و حاول أن يوفق بين المذهبين(8).

1- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 131.

2- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 101 - 102.

3- يحي جلال ، المرجع السابق، ص 453.

4- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 102.

5- ماريا حسن مغتاز، المرجع السابق، ص 44 - 45.

6- نفسه، ص 45.

7- بير نجيه جان، المرجع السابق، ص 284.

8- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 102.

كلف الإمبراطور بعض علماء اللاهوت بدراسة أوجه الخلاف بين المذهبين لوضع نظام يلتزم به المذهبين، و تم التوصل إلى نظام أطلق عليه اسم النظام المؤقت و كان هذا النظام كاثوليكيًا في روحه(1)، لكنه ينطوي على التسامح لإرضاء البروتستانت كزواج القس والتبرير بالإيمان، واستخدم الإمبراطور الجنود لتنفيذ هذا النظام في ألمانيا، كما قاومت البروتستانتية في مدينة مجدبرج Magdeburg في ألمانيا الشمالية وعاد دوق سكسونيا إلى صفوف البروتستانت بعد احتجاجه على النظام المؤقت(2).

سارت الحوادث في هذه المرحلة لصالح البروتستانت خاصة بعد انضمام موريس ناخب سكسونيا، و الذي كان يمثل عمود ارتكاز للمعسكر البروتستانتية، كما أن هنري الثاني ملك فرنسا كان يسعى للقضاء على شارل الخامس فتحالف مع البروتستانت و عقد معهم معاهدتين في عام 1552م، كما أن الإمبراطور كان مشغولاً بمسألة الوراثة في أملاكه(3) بشن الأمراء هجوماً ضد الإمبراطور و هزموه عام 1552م، فاضطر الإمبراطور اللجوء إلى أخيه فرديناند في كارنتيا التي كان حاكماً عليها(4)، و الذي توسط لعقد معاهدة بساو Passau مع موريس في جويلية 1552م، و التي نصت على دعوة المجلس الإمبراطوري في بحر ستة أشهر لتسوية جميع المسائل المختلف عليها نهائياً، و وافق الإمبراطور على عقد هذه المعاهدة و عهد إلى أخيه الوصول إلى تسوية حاسمة مع خصومه، و في فيفري 1555م دعا لانعقاد المجلس المتفق عليه في أو جزبرج و ترأس فرديناند جلساته لتقرير الصلح مع الأمراء البروتستانت(5) وأهم ما صدر في هذا الصلح: تطبيق المبدأ الذي ظهر في مجلس سبير الأول في عام 1526م، بأن لكل أمير الحق في اختيار المذهب الذي يريده في إمارته(6) وألا يعترض الأمراء الكاثوليك للولايات

1- عبد الحميد البطريق، المرجع السابق، ص 103.

2- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 132.

3- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 131.

4- مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 427.

5- عمر عبد العزيز عمر، المرجع السابق، ص 174.

6- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 132.

البروتستانتية وعدم التدخل في معتقداتهم، في حين تحترم الولايات البروتستانتية الولايات الكاثوليكية وعدم التعرض لهم، و السماح لرعايا الطرفين في عبور كل منهما أراضي الآخر دون التعرض لهم و لممتلكاتهم⁽¹⁾. كما نص على عدم الاعتراف بأي مذهب آخر غير المذهبين الكاثوليك و البروتستانت، فلم يعترف هذا الصلح بمذهب كالفرن و رزونجلي⁽²⁾(3) كما نص على إبقاء أملاك الكنيسة التي اغتصبت من قبل عام 1552م في يد معتصبيها من رجال الدين و العلمانيين، و في المقابل نص على إرجاع أملاك الكنيسة التي أخذت منها بعد عام 1552م.

كان صلح أوجزبرج لصالح الأمراء، لأنه دعم استقلالهم عن الإمبراطور من الناحية العملية و قوى مراكزهم بعدما أعطى لهم الحق في اختيار الاتجاه المذهبي⁽⁴⁾. وجاء هذا الصلح نهاية لمسيرة طويلة شنتها الثورة على الكنيسة في ألمانيا منذ أن حمل لوثر لواء التمرد والعصيان، وتتويجا للجهود التي بذلها أتباعه ومريديه اعترف الإمبراطور بالبروتستانتية كمذهب، وانتشرت اللوثرية خاصة في القسم الشمالي في ألمانيا وفي مناطق متفرقة من الجنوب⁽⁵⁾.

على الرغم من أن صلح أوجزبرج حافل بالسلبات، فإنه بقي الأساس الصالح للحياة الدينية و السياسية في ألمانيا لمدة تزيد عن 50 عاما، حتى مطلع القرن 17م إلى قيام حرب الثلاثين سنة⁽⁶⁾.

-
- 1- عبد العزيز سليمان نوار، المرجع السابق، ص 132.
 - 2- هما مذهبين تزامن ظهورهما مع مذهب لوثر، ظهر مذهب روزونجلي في سويسرا و انفصل عن الكنيسة عام 1519م ونشر أفكاره الإصلاحية عام 1531م، أما مذهب كالفن ظهر في إنجلترا و انفصل عن الكنيسة عام 1534، لكنهما لم يكونا بشدة مذهب مارتن لوثر الذي لقي رواجاً كبيراً. أنظر: مفيد الزبيدي، المرجع السابق، ص 428 - 430.
 - 3- زينب عصمت راشد، المرجع السابق، ص 107.
 - 4- عبد العظيم رمضان، المرجع السابق، ص 133.
 - 5- عبد الفتاح أبو عليّة، المرجع السابق، ص 98.
 - 6- عبد المجيد نعني، المرجع السابق، ص 63.

خلاصة:

يتضح أن الحروب الإيطالية التي نشبت بين فرنسا والإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تكن معارك حربية بقدر ما كانت دبلوماسية، تمثلت في سعي المتحاربين في تكوين تحالفات سياسية وعسكرية، كما مثلت مرحلة هامة من فن الخطط الحربية و استخدام سلاح المشاة و سلاح المدفعية، وعقد الزيجات السياسية بين الأسر الحاكمة كوسيلة للتقريب بين الدولتين.

حقق الإمبراطور شارلكان انتصارات عظيمة في هذه الحروب، فقد حققت إسبانيا سيادة على شبه الجزيرة الإيطالية، و لكن هذا لا ينفي أن فرنسا رغم خسارتها ظفرت بمكاسب إقليمية في الشمال الشرقي لفرنسا (أسقفيات متز و تول و فردان).

كانت هذه الحروب التي خاضها الإمبراطور شارلكان مع فرانسوا الأول تتأرجح بين السلم و العداء، فهي كانت تجرى في فترات متقطعة و ذلك ما يظهر في المعاهدات المبرمة من أجل السلم.

تزامنت الحروب الإيطالية مع ظهور حركة الإصلاح الديني بزعامة مارتن لوثر بألمانيا، و لعل ما ساهم على إنجاح هذه الحركة هو انشغال الإمبراطور شارلكان بالحروب الإيطالية، فلم ينتبه إلى ذلك الخطر إلى بعد انتشار أسس العقيدة البروتستانتية، و هو ما سيكون له الأثر البالغ في الفترة التي تلي هذه الحركة.

رغم الجهود التي بذلها الإمبراطور شارلكان للحد من حركة لوثر إلى أنه فشل في القضاء عليها، و هو ما اضطره في الأخير الاعتراف بالبروتستانتية كمذهب مستقل عن المذهب الكاثوليكي.

الفصل الثالث:

المسار العسكري للإمبراطور شارلكان خارج أوروبا

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني في عهد الإمبراطور شارلكان

(1519- 1531م)

المبحث الثاني: حملة الإمبراطور شارلكان على تونس عام 1535م

المبحث الثالث: حملة الإمبراطور شارلكان على الجزائر عام 1541م

تمهيد:

بعد سقوط دولة المسلمين بالأندلس أصبحت الدولة الإسبانية على مقربة من شمال إفريقيا، فأخذت إسبانيا و هي تعيش نشوة الانتصار على المسلمين تعمل على توسيع حدودها إلى ما وراء البحار، في الوقت الذي كانت دول المغرب العربي منهكة في الحروب فيما بينها و في قمع الثورات الداخلية، فاستفحل خطر الأساطيل الأوروبية خاصة الإسبانية منها التي أصبح هدفها القضاء على سيطرة المسلمين على المناطق الغربية في البحر المتوسط، و الهجوم على المدن و الأراضي الإفريقية خاصة المغرب الأوسط ، فانطلقت في تنفيذ مشروعها التوسعي و الهادف إلى احتلال المناطق الإستراتيجية، و في القرن 16م كثفت نشاطها التوسعي فاحتلت المرسى الكبير في عام 1505م، ثم استولت على وهران في عام 1509م و في عام 1510م استولت على بجاية و تلمسان و عنابة، وهو ما فتح المجال لإسبانيا بعد تولي شارلكان عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة عام 1519م، بمواصلة الجهود الهادفة إلى احتلال سواحل المغرب الأوسط و المغرب الأدنى و الحفاظ على المراكز المحتلة من قبل.

المبحث الأول: الصراع الجزائري الإسباني في عهد الإمبراطور شارلكان (1519- 1531م)

1- حملة هيغودي مونكادا (1) على مدينة الجزائر عام 1519م:

كان لاستشهاد عروج (2) وانتصار الإسبان على المسلمين في موقعه وادي الملح أثره البالغ في ارتياح الإسبان، الذين رأوا بأنها فرصة سانحة للتأثر من مسلمي شمال إفريقيا (3)، خاصة بعدما احتفى خير الدين بالدولة العثمانية أين بادر في تقوية أركان إيالته الحديثة ففزعت إسبانيا بانضمام الجزائر للخلافة الإسلامية العثمانية، لأنها كانت تدرك أن هذا الانضمام يعني وصول الخطر العثماني إلى القسم الغربي من البحر المتوسط، الذي يعتبره الإسبان بحكم استيلائهم على أهم المدن الساحلية الجزائرية، وعلى جزره الكبرى ومعظم السواحل الإيطالية بحرا إسبانيا صميما وبالتالي تهدد وجودها (4)، فعزم الإمبراطور شارلكان على القضاء نهائيا على دولة الأتراك بالجزائر (5).

كان خير الدين ذو خبرة وحنكة حين أدرك أن الإسبان سيغتنمون فرصة مد نفوذهم في تلمسان، وتمكنهم من اغتيال عروج للقيام بهجوم على مدينة الجزائر للقضاء على القوة التركية وهي لا تزال في مهدها (6)، وبهذا تمكن خير الدين بعد استشهاد عروج من الصمود

1- هيغو دي مونكادا: فارس كنسي لمالطة، وهو قبطان معروف بوزنه الذي أظهره بإيطاليا زمن القبطان الأكبر. ينظر: فراي ديغو هايدو، تاريخ ملوك الجزائر، تر: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، دار الهدى للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013، ص 44.

2- عروج بربروس: من مواليد 1473م، وهو من تركيا إحدى جزائر أرخبيل اليونان (مد بللي) نشأ على هواية الحياة البحرية أنشأ جفنا للتجارة و أخذ يعمل به للارتزاق، وقع أسيرا في يد الطليان البنادقة فعذبوه و نكلوهمما أثار في نفسه الحقد و حب الانتقام من القراصنة الأجانب، وبعد إطلاق سراحه كرس نفسه للجهاد و الغزو في البحر للقضاء على القرصنة الأوربية. ينظر: عبد الرحمان بن محمد الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج2، ط1، المطبعة العربية، الجزائر، 1955، ص 290.

3- عبد الرحمان بن محمد الجليلي، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ط 7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م، ص ص 44- 45.

4- أحمد توفيق المدني، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492- 1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ص 205.

5- عبد الرحمان بن محمد الجليلي، ج 3، المرجع السابق، ص 45.

6- لخضر بوطبة، "الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م - الاحتلال الإسباني للمدن الساحلية الجزائرية نموذجا" المجلة التاريخية الجزائرية، ع 10، المسيلة، ديسمبر 2018م، ص 128.

و تجاوز الحاجز النفسي أين تلقى الدعم من أهالي مدينة الجزائر والسلطان العثماني الذي عينه بايا على الجزائر(1).

كان خير الدين على استعداد دائم للتصدي للإسبان، ولم تكن توقعاته وهمية(2)، فمع دخول فصل الربيع لعام 1519م حتى جاء حدث دعم بقائه في الحكم، وهو الحملة الإسبانية بقيادة دون هيغودي مونكادا بأمر من الإمبراطور شارلكانالذي أعطى لهذا القائد الأمر بطرد خير الدين من الجزائر(3)، وتعد هذه الواقعة أحد أشكال التحالف بين الإسبان وأحد ملوك بني عبد الواد سلطان تلمسان أبي حمو الثالث(4). حيث أرسل هذا الأخير رسالة إلى نصارى إسبانيا يلومهم على عدم مساعدته في مواجهة الإخوة بربروس، و كان ردهم بأنه لم يطلب منهم المساعدة و لأن فعل لساعده و من الآن فهم معه ليمدوه بما يريد، فتم الاتفاق على أن يقوم أبو حمو الثالث بالزحف على مدينة الجزائر شرقاً(5).

أبحر الأسطول الإسباني من جزيرة صقلية أواخر جولية بقيادة هغيو دي مونكادا مع نائبه القائد الإسباني كونز ألفو مارينيو ديربيريرا Gonzalv Marino Deribera, مجهزا بأضخم أجهزة الحرب واشتملت هذه العمارة على ما يزيد عن 40 قطعة بحرية على متنها 50000 رجل، فعرج الأسطول أولاً إلى وهران لتزويده بالعتاد. ثم اتجه إلى بجاية فوصل أمام مدينة الجزائر في 17 أوت 1519م و نزلوا بوادي الحراش(6).

- 1- الطاهر نجدة، " دور العثمانيين الأتراك في انبعاث وحدة الدولة الجزائرية الحديثة "، مجلة عصور الجديدة، ع 11-12، خريف شتاء فيفري، 2013-2014م، ص 200.
- 2- لخضر بوطبة، المرجع السابق، ص 128.
- 3- فراي ديغوها يدو، المرجع السابق، ص 44.
- 4- أبو حمو الثالث: هو أبو موسى حموا الثالث الملقب بأبي قلمون بن محمد الرابع انتصب قهرا على عرش تلمسان عام 1503م، فعزل ابن أخيه محمد السابع وباشر الحكم والبلاد يومئذ في اضطراب وحيل حكومتها في انحلال وضعف وتشتت. ينظر: نبيل تشيش، مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغارب وأثرها في توازن القويخلال الفترة (1520- 1792م)، أطروحة دكتوراه (ل م د) في تاريخ بلاد المغرب الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي، 2022 - 2023، ص 42.
- 5- خير الدين سعدي، " الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1518- 1775م) من خلال مخطوط الزهرة النائرة - لابن رقية التلمساني "، مجلة دراسات و أبحاث، ع 29، إسطنبول، ديسمبر 2017م، ص 95.
- 6- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 205 - 206.

لمح خير الدين قوارب الإسبان وهي تتقدم دفعة واحدة و قد اكتشفها في وضوح النهار، و رست بالقرب من الشاطئ، و بعد وصولهم إلى الجزائر قام قائد الحملة بإرسال تحذير إلى خير الدين يطلب منه الاستسلام(1)، و قد جاء في نص الرسالة: " أنظر ما حل بأخويك عروج وإسحاق و ما آل أمرهما إليه من الإهانة و القتل فإن نجوت بنفسك فبها نعمت، و إلا حل بك ما حل بهما فكان عروج حازما تجاه هذه التهديدات فرد عليهم مخاطبا ... جاهدوا علينا جهدكم فما دمنا في قيد الحياة فإنكم لا تظفرون من الجزائر بجبر من أحجارها و ليس بيننا و بينكم إلا السيف حتى يحكم الله بيننا و هو خير الحاكمين"(2).

خلال نزول الجيوش الإسبانية بدؤوا بمحاصرة المدينة و انقسموا إلى قسمين، الأول يهاجم المدينة من الغرب من منطقة كدية الصابون، والأخر من جهة الجنوب، واصطفت القوارب الحربية في صف واحد أمام المدينة و هكذا أصبحت محاصرة برا وبحرا،(3) ولحسن حظ المدينة فإن القائدين مونكاد و غوفير لم يتفاهما فيما بينهما فالأول يريد الهجوم الفوري على المدينة، أما الثاني يرى ضرورة انتظار وصول قوات ملك تلمسان(4)، مما أضعف مركزهم كما أن المساعدات التي توعد بها السلطان أبو حمو الثالث لم تصل بعد(5)، فأرهقتهم المناوشات فقررت القيادة الإسبانية القيام بالهجوم العام و فتح العمليات(6).

ظهر العياء والإنهاك على القوات الإسبانية بعد يومين من بدأ المعركة فبدأت بالتراجع والانسحاب، و في اليوم الثالث شكل خير الدين فرقة من 500 شخص كلفها بحرق أرزاق الإسبان على الساحل، فخدعوا بهذه الفرقة وأعدوا قوة لمهاجمتها تاركين مواقعهم الدفاعية

- 1- كورين شوفالييه، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، تلمسان 2010م، ص 39.
- 2- خير الدين سعدي، المرجع السابق، ص 96.
- 3- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 39.
- 4- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، 2012م، ص 50.
- 5- لخضر بوطبة، المرجع السابق، ص 128.
- 6- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 207.

فا استغلت القوات التركية ذلك و هاجمت الإسبان فأحدثوا خلا و إرباكا في صفوفهم(1). أثناء هذه العملية ارتفعت أمواج البحر واشتد هيجان المياه مما جعل عملية الرجوع إلى الأسطول غير ممكنة(2)، و لهذا تحصنوا و اختبئوا لكن خير الدين دك مخيمهم بالمدافع خلال 48 ساعة(3)، فقتل منها ما قتل واستسلم ما بقي حيا من ذلك الجيش الذي يحمل آمال إسبانيا و آمال المسيحية جمعاء، و كان هذا اليوم العظيم الخالد يوم النصر المبين وهو يوم الأحد 24 أوت 1519م بعدما استمرت هذه المعركة لمدة ثمانية أيام، لكن مأساة الإسبانين لم تنته حيث هبت عاصفة رهيبة، و ذلك أن الرياح المعاكسة و الأمواج المتلاطمة أدت إلى رمي 26 سفينة فاندفع الأهالي باتجاه الغنائم(4).

أسفرت هذه الحملة على أسر 3000 مقاتل وأكثرهم من الضباط و من بينهم رئيس الحملة، و مات منهم 4000 غرقا(5)، و في ظل هذه الظروف أجبر مونكاد على ترك مدافعه ولوازمه الثقيلة وتعرض الجيش الإسباني وأسطوله إلى فناء تام، ولم ينجوا منهم إلا القليل و أمر خير الدين بقطع رؤوس الأسرى بالسيف انتقاما لاستشهاد أخيه إسحاق الذي قتل بعد تسليم نفسه، وبهذا فافت شهرة خير الدين شهرة و نفوذ أخيه عروج(6).

جهزت إسبانيا حملة أخرى عام 1520م ردا على فشل هذه الحملة، و كانت هذه الحملة مكونة من 110 قطعة حربية بقيادة نائب الإمبراطور شارلكان على صقلية الأميرال فرديناند(7)، و منيت هذه الحملة بهزيمة نكراء بعدما تعرض لها خير الدين بهجوم معاكس

- 1- عزيز سامح التري، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1989م، ص 77.
- 2- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 208.
- 3- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 40.
- 4- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 208.
- 5- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي، ج 3، المرجع السابق، ص 45.
- 6- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 78.
- 7- محمد دراج، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، تص: ناصر الدين سعيدوني، ط 1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012م، ص 243.

أثار الاضطراب في قيادة الأسطول الإسباني و أحدث ثغرة في اتجاه السفن، أين أصبحت تصطدم ببعضها البعض و أسر القائد فرديناند مع 36 قبطانا 300 بحار إسباني، و تم الاستيلاء على الكثير من السفن و إغراقها(1).

1- تحرير خير الدين لخصن البنيون (LEPEGENON) عام 1529م و الهجوم على جزر البليار:

أ- تحرير حصن البنيون (LEPEGENON) 1529م:(2)

من حسن حظ خير الدين و الإيالة الجزائرية أن الإسبان لم يشنوا أي هجوم على مدينة الجزائر طيلة 9 سنوات من عام 1520م إلى 1529م، و اكتفوا بتواجدهم في صخرة البنيون والتي كانت حاجزا في توحيد الجزائر للجهتين الوسطى والشرقية(3). بعد الانتصارات التي حققها خير الدين في الجزائر و القضاء على حركات التمرد قام بتوطيد الأمن والاستقرار أحكم قبضته على المدينة بفرض النظام فيها، بدأ يفكر لطرد الإسبان من مدينة الجزائر وهو السبب الرئيسي في قدوم الأخوة بربروس إليها تلبية لدعوة أعيانها، فكان من الطبيعي أن يجعل تحرير الحصن أول عمل عسكري يقوم به(4)، فسارع قائد القلعة لطلب الإمدادات من دولته خوفا من نشاط خير الدين لكنها لم تلبى.

شكل الوجود الإسباني في قلعة البنيون خطرا كبيرا وإهانة حقيقية لهم، لأنها كانت تعيق تحرك السفن الجزائرية ذهابا وإيابا، كما أن ميناء جربة أصبح غير ملائم لخير الدين

1- عبد الحميد قسول، " إسهامات خير الدين بربروس (1518- 1543م / 924- 950هـ) في بناء كيان الدولة الجزائرية الحديثة وفق الدراسات الحديثة "، مجلة دراسات تاريخية، م 8، ع 1، بوزريعة، 2023م، ص 67.

2- البنيون: قلعة في جزيرة صغيرة مقابلة للمدينة وقريبة منها، اعتاد الإسبان إقامة قلاع حصينة عليها و كلف الكونت بيير نافاروا الرئيس الأكبر للأسطول الإسباني عام 1510م قائد أسطول البحر الأبيض المتوسط، ديبكو دي فيرا بتشديد حصن البنيون بالجزائر. يظر: تشيش نبيل، مظاهر التحالفات...، المرجع السابق، ص 60.

3- طاهر تومي، العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر و الثامن عشر على ضوء المصادر المحلية، مذكرة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، 2014- 2015م، ص 84.

4- محمد دراج المرجع السابق، ص ص 258 - 259.

بعدما أصبح يملك 20 سفينة ناهيك عن ضعف العدد الذي كان يملكه القباطنة المساندون له، فوجه أنظاره إلى ميناء الجزائر خاصة بعد استقراره بالجزائر بصفة نهائية(1).

بعد احتلال الإسبان للقلعة وضعوا المدينة تحت قبضتهم، فعجز الأهالي على ممارسة أي نشاط بحري دون الرجوع إلى الإسبان، ناهيك عن الجزية السنوية المفروضة عليهم (2). وكانت عائقا أمام هدف خير الدين في توحيد بلاد المغرب الأوسط، فقرر تحريرها لتوحيد الجهتين الشرقية و الوسطى من الجزائر ثم التفرغ لمقارعة الإسبان في الجهة الغربية(3).

كان هذا الحصن الذي بناه الإسبان فوق جزر ميناء مدينة الجزائر يسيطر على هذه المدينة منذ 18 سنة(4)، و أمام هذه الظروف القاسية التي كان يعيشها أهالي المدينة من مرارة الاحتلال والجزية والإذلال ، أصبح طرد الإسبان من القلعة حتمية لازمة فرضها الواقع الجديد الذي يتزامن مع الوجود العثماني في مدينة الجزائر(5). استغل خير الدين الظروف القاسية التي كانت تمر بها الحامية من البؤس والحرمان بسبب الإهمال وسوء تسير الحكومة الإسبانية فلم تعد تزودها بالمؤن و العتاد العسكري(6) كما أن ضيق مساحتها جعل تزويدها بالقدر الكافي من الجنود مستحيل، كما اضطر جنودها إلى جلب مياه الشرب من جزر البليار لعجزهم النزول إلى البر، و قبل أن يشرع في الهجوم اقترح على قائد القلعة الإسباني دون مارتين تسليم القلعة دون أن يصابوا بأذى لكنه رفض(7).

بدأ خير الدين في قصف الحصن في 6 ماي 1529م، و ذلك برمي القنابل الحديدية على بعد 200 متر من جدران المعقل الإسباني و الذي كان حصينا جدا(8)، و دام القصف

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 86.

2- محمد دراج، المرجع السابق، ص 259.

3- طاهر تومي، العلاقات الجزائرية...، المرجع السابق، ص 84.

4- كورين شوفالبييه، المرجع السابق، ص 46.

5- محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 259 - 261.

6- نفسه، ص 260.

7- خير الدين بربروس، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط 1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2010م، ص 134 - 135.

8- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 115.

لمدة 20 يوما و تمكنت المدافع الجزائرية من إحداث ثغرات في أسوارها(1)، و في نفس الوقت أمر خير الدين بتجهيز السفن الحربية وشحنها بالعتاد و الرجال و أذاع في كل مكان بأنه سيبحر إلى السواحل الإسبانية من أجل الغزو و الجهاد، فخرجت السفن من وراء صخور الجزائر متجهة نحو الشمال ولما حل الظلام عادت أدرجها و اختبأت في مرفأ تامنفوست في الجهة المقابلة على الطرف الآخر للخليج(2).

في 22 ماي أخذت بطريات المدفعية الموجودة في المدينة تقصف المعقل بكثافة عالية لمدة يومين، ثم سكتت المدفعية وظن الإسبان أن المعركة انتهت(3)، و قد تزامن ذلك اختراق الأسطول الجزائري الخليج من ناحية تامنفوست تتقدمها سفينة ضخمة غنمها خير الدين من البنادق وشحنها بالسلاح و الرجال، وأحاطت السفن بالجزيرة من الشرق و الغرب، و لما انتبه حراس القلعة لحركتهم أطلقوا النفير لكن بعد فوات الأوان، لأن المجاهدين قد كانوا تمكنوا من النزول إلى أرض المعقل وهاجموا الحصن بإغارة مباغطة و تمكنوا منه(4).

أصبحت الحامية الإسبانية لشدة القصف بالذعر خاصة بعد تمكن خير الدين من فتح ثغرة في جدار القلعة، و أمام استحالة النصر لم يجد دون مارتن وسيلة بعد انهيار معنويات جنوده سوى القتال بنفسه، لكن الأتراك انتصروا عليه و تمكنوا من عبور الثغرة(5).

أسفرت هذه المعركة على فقدان المسلمين 11 تركيا و 35 عربيا، في حين قتل من المسيحيين 65 جنديا و أسر المسلمين منهم 95 جنديا و 20 من النساء والأطفال، و كان القائد مارتينو دي فاركاس ضمن هؤلاء الأسرى. ظهرت سفينة إسبانية ضخمة بعد الاستيلاء على البنيون على متنها 700 محارب فانقضت عليها سفن المجاهدين و أسرتها

1- محمد دراج، المرجع السابق، ص 261.

2- بسام العسلي، خير الدين بربروس (و الجهاد في البحر) 1470-1547م، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1985م، ص 116 - 117.

3- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 116.

4- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 117.

5- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 87.

و اقتادتها إلى ميناء الجزائر(1).

أمر خير الدين بتدمير قلعة البنيون و ربط الجزيرة بالبر عن طريق جسر من الصخور صار يحمل اسم خير الدين، و أمر بوصل الجزر الصغيرة ببعضها البعض على شكل دائري ذي فتحة واحدة، و ذلك باستخدام الأسرى(2)، و بهذا استطاع خير الدين القضاء على القلعة الإسبانية و تحويل الجزائر إلى قاعدة بحرية متقدمة للدولة العثمانية(3).

أثار استيلاء خير الدين على القلعة سخط الملك كارلوس و ضرب عنق الرسول الذي حمل إليه الخبر قائلا: " إن الاستيلاء على القلاع من أعمال الملوك العظام أمثالي، كيف تجرأ لص من لصوص البحر مثل بربروس على أخذ قلعتي؟ في الوقت الذي أسرت فيه ملكفرنسا وألقيت به في إحدى زنازين مدريد لم أستطع أن أتصدى؟!، بالتأكيد أن السبب في ذلك يرجع إلى عجز قادتي في البر والبحر لقد مرغتم وجهي في التراب...هيا اخرجوا عني!...."(4).

ب- الهجوم على جزر البليار:(5)

بعد ما ثبت خير الدين وجوده في مدينة الجزائر بدأ يفكر في نقل المعركة إلى السواحل الإسبانية وإنقاذ الأندلسيين الفارين من دواوين التفتيش(6)، في الوقت الذي ارتفعت فيه وتيرة

- 1- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 216 - 217.
- 2- محمد دراج، المرجع السابق، ص 263.
- 3- ج. أو. هابنسترايت، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ- 1732م)، تر: ناصر الدين سعيد وني، دار الغرب الإسلامي، تونس، ص 114.
- 4- خير الدين بر بروس، المرجع السابق، ص 137.
- 5- جزر البليار: هي الجزائر الشرقية أو جزائر شرقي الأندلس و هو الاسم الذي تطلقه المصادر العربية الإسلامية على الجزر الواقعة شرقي الأندلس في البحر المتوسط، أما اسمها الحديث هو جزر البليار، و هي مجموعة من الجزر أشهرها ميروقة Mallorca و يابسة Ibiza ومنروقة Menorca و أقربها إلى برالأندلس جزيرة يابسة القريبة من مدينة دانبة Denia. ينظر: جاسم ياسين الدرويش، حسين جبار العلباوي"مراحل سقوط الجزائر الشرقية (جزر البليار les Baleare) (508- 687هـ/ 1114- 1287م)"، مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، م48، ع 1، البصرة، مارس 2023، ص 132.
- 6- طاهر تومي، العلاقات الجزائرية...، المرجع السابق، ص 68.

وتيرة الهجمات التي كان يقوم بها المجاهدون الأتراك و الجزائريون على شكاوي ملكهم شارلكان ضد الجزائر مطالبين بضرورة تأمين سواحلهم(1).

قرر خير الدين مهاجمة جزر البليار و سلم هذه المهمة لأيدين رايس Aydim Reis فخطبه قائلاً: "يا ولدي أيدين في هذه السنة سوف تخرج أنت للغزو في غرب البحر المتوسط، عليك أن تمضي إلا أن تتوغل في مضيق سبتة و في أثناء عودتك قم باحتلال سواحل إسبانيا دون أن تدع لهم أي فرصة للنيل منك، ثم احمل في سفنك من تقدر على حمله من أخواننا المسلمين اللاجئين إلى جبال غرناطة، فأت بهم سالمين إلى الجزائر"(2).

غادر أيدين رايس مرسى الجزائر بعشرة سفن متوغلا في غرب البحر حتى بلغ مضيق سبتة و اشتبك مع خمس قطع بحرية عملاقة، وانتهت المعركة باستيلائه عليها، ثم واصل الإغارة على السواحل الجنوبية لإسبانيا وقصفها بالمدافع، وكان يحمل كل من يعثر عليه من مسلم في سفنه كما استمر في أسر كل من يقع في يده من الإسبان حتى امتلأت سفنه(3). علم ملك إسبانيا بنهب الرايس أيدين و الرايس صالح ل14 سفينة في سواحل جنوة، ثم توجهوا إلى السواحل الفرنسية ورسوا في مرسيليا، و في طريقهم إلى السواحل الإسبانية هاجموا و دمروا عدة مناطق و أسروا الآلاف من الأشخاص و غنموا غنائم كثيرة، و قد علم الرايس أيدين بخبر المسلمين الراغبين في التخلص من الظلم الإسباني، فذهب مسرعا إلى سواحل أوليفا فاستطاع إنقاذ 200 عائلة(4).

في هذه الأثناء تلقى الأميرال الإسباني بورتونديو portondo، أمرا من الإمبراطور بالتقدم لمهاجمة الأسطول الجزائري وقطع طريق العودة على أيدين رايس، واعد إياه بمكافأة قدرها 10000 دوقية في حال نجاحه في القضاء على الأسطول الجزائري فسار بورتونديو بأسطول ضخم مؤلف من 15 سفينة بدافع حب المال، معترضا أسطول

1- محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 166 - 167.

2- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص ص 138 - 139.

3- نفسه، ص ص 139 - 140.

4- عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 88.

أيدين رايس في إحدى سواحل إسبانيا، و لكي يتمكن أيدين رايس المحاربة بشكل أفضل قرر إنزال المهاجرين الأندلسيين في الساحل، و بعد المعركة يعاد حملهم إلى الجزائر لأن بقائهم سيعرضهم للخطر ويعيق تحرك البحارة في القتال(1).

انطلق رايس أيدين كالفارس يهاجم الإسبان بقوة و مهارة فأذهل الإسبان و أربكهم، فتركوا سفنهم و اتجهوا إلى البحر وفضلوا الغرق على الموت بالسيف(2). حقق أيدين رايس انتصارا باهرا في هذه المعركة بمساعدة صالح رايس الذي وصف بأنه يخرج الثعلب من جحره من فرط دهائه، كما لقب الإسبان الرايس أيدين بضارب الشيطان لشراسته في هذه المعركة، و التي أدت إلى مقتل قائد الأسطول الإسباني بورتونودو و جميع من كان معه من القباطنة و أسر 375 إسبانيا، كما تم إنقاذ المسلمين الذين كانوا مقيدين في المجاديف، و كذا المهاجرين الأندلسيين الذين تم حملهم من جديد في السفن و نقلوا إلى الجزائر(3).

أدركت إسبانيا خلال هذه المعركة حقيقة الخطر الجزائري الذي نقل لأول مرة الحرب إلى عقر دارهم.

5- رد الإسبان على تحطيم البنيون و الهجوم على جزر البليار:

أ- الحملة الإسبانية على شرشال عام 1531م:

لا شك أن هجوم الإسبان على مدينة شرشال جاء كرد فعل على تدمير حصن البنيون، و الذي أغضب الإمبراطور بشدة خاصة بعد قضاء خير الدين على النجدة الإسبانية القادمة إلى حصن البنيون، و ازدياد الهجمات التي كان يقوم بها البحارة الجزائريون والأتراك على سواحل إسبانيا وإيطاليا و جزر البليار و غيرها في غرب المتوسط(4).

1- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص ص 140 -141.

2- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 88.

3- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 141.

4- عبد القادر فكاير...الحملة الإسبانية...، المرجع السابق، ص 258 - 259.

أمام هذه الانتصارات خاصة بعد تحطيم البنيون انتشرت موجة غضب في الأواسط الإسبانية، خاصة لدى سكان السواحل الذين اندفعوا بشكل دائم و مستمر يشكون إلى الهيئات العليا للدولة الإسبانية عن أوضاعكم وتخوفاتهم جراء مهاجمة المجاهدين لهم، مطالبين بإنقاذهم وتخليصهم من هذه الأوضاع(1)، فعقدالإمبراطور شارلكان مجلسا لمعالجة هذه القضية فخاطب قاداته و أميرالاته قائلا: "لقد جعلتموني مسخرة بين الملوك فليس فيكم من يستطيع التصدي لبربروس...". فجت الأميرال الجنوبي أندريا دوريا على ركبتيه أمام الملك قائلا: "اطمنن يا مولاي سوف أمضي بسرعة و أحضر هذا المدعو بربروس عدو المسيح مقيدا بالسلاسل بين يديك، و حينها لك أن تأمر بقتله لكي تلحق روحه الخبيثة بروح أخيه عروج المستقرة في قعر جهنم...". فسر الملك كثيرا لسماع هذه الكلمات(2) فقرر المجلس الملكي غزو الجزائر بعد موافقة الملك(3).

بدأت الاستعدادات الإسبانية بعقد الإمبراطور شارلكان السلم مع فرنسا لأنه كان في حالة حرب معها، ليتفرغ لتوجيه حملة عسكرية على الجزائر(4).

غادر الأسطول الإسباني جنوة في جويلية من عام1531م على رأس 38 سفينة، تحمل حوالي 1500 من المقاتلين و المعدات الحربية متجهة إلى مدينة شرشال(5)، و كله أمل على إلحاق الهزيمة بالأسطول الجزائري وأسر قائده خير الدين الذي توعد لملكه بأسره و أخذه لإسبانيا(6)، و قرر اتخاذ مدينة شرشال(7) نقطة لإنزال قواته مستغلا بذلك غياب

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص ص93 - 94.

2- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 148.

3- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص94.

4- جون وولف، الجزائر و أوروبا 1500-1830، تر: تع: أبو القاسم سعيد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م، ص 4

5- عبد القادر فكايير، الحملة الإسبانية...، المرجع السابق، ص 261.

6- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 149.

7- كانت مدينة شرشال من أكبر مراكز الدولة الجزائرية و قد حصنها عروج و أقام بها قلعة، و اتخذت منها الدولة الجزائرية مصنعا لعتاد الجيش و معمل لصناعة الأخشاب، و تقع بين مدينتي الجزائر و وهران و باستيلاء الإسبان عليها تصبح مصدر تهديد مباشر لمدينة الجزائر. ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ص ص 222 - 223.

خير الدين(1).

علم خير الدين بتحريك القوات الإسبانية فجهز أسطولاً بحرياً مكوناً من 35 سفينة من نوع قادرغة، و عين قرد أغلو رئيساً على رأسها و نتيجة لهذه الاستعدادات قرر دوريامهاجمة مدينة شرشال نظراً لموقعها الاستراتيجي و قربها من جزر البليار(2)، و بوصول الأسطول الإسباني إلى مدينة شرشال تشاور القادة و رجال المدينة و تقرر إخلائها، و اضطرت الحامية اللجوء إلى القلعة و الدفاع عنها إلى أن تصل الإمدادات من الجزائر و من داخل البلاد(3)، إلا أن القوات الإسبانية تمكنت من دخول المدينة و قام دوريا بإحراق سفن الأتراك، و أنزل عساكره مقتحماً المدينة و حرر 800 من السجناء المسيحيين ثم راح الجنود المهاجرون يقومون بأعمال النهب في المدينة(4).

كان جنود القلعة يراقبون تحركات الإسبان و لما لاحظوا الفوضى التي آل إليها الجيش الإسباني شنوا عليهم هجوماً مكثفاً بمشاركة المهاجرين الأندلسيين، و بدأ القصف بالمدفعية و الانكشاريون يجولون بسيوفهم أين أزهقت الأرواح و قطعت الكثير من الرؤوس من شدة هول الهجوم(5). نظراً لما آل إليه جنود دوريا من الاضطراب و التفهقر قرر الانسحاب، وهكذا أدى جشع الجنود إلى قلب ذلك النصر إلى هزيمة(6).

انتهت المعركة بمقتل 1500 جندي من الإسبان و أسر 640 آخرين، و وصل خير الدين متأخراً إلى مدينة شرشال فتولى أمر الأسرى و أمر بربطهم بمجاديف السفن و كان من بين هؤلاء الأسرى مساعد دوريا الذي أقر بأن دوريا توجه إلى جنوة(7)، فأمر خير

1- عبد الحميد بن أبي زيان بن أشنهو، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مكتبة جواد السامي، ص 158.

2- طاهر تومي، العلاقات الجزائرية...، المرجع السابق، ص 26.

3- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق ص 223.

4- مارمول كربخال، إفريقيا، ج 2، تر: محمد حجي و آخرون، دار نشر المعرفة، الإسكندرية، 1988-1989م، ص 357.

5- عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 95.

6- مارمول كربخال، ج 2، المرجع السابق، ص 357.

7- عزيز سامح التر، المرجع السابق، ص 95.

الدين أيدين رايس بملاحقته و أسره، فخرج بأسطوله فبلغ سبتة إلى جبل طارق و منه إلى المحيط الأطلسي لكنه لم يضر بالعدو، و في طريق العودة أغار على جزر البليار و قصف جزيرة ميروقة، و السواحل الإسبانية المطلة على البحر المتوسط و تمكن من أسر 3000 أسير، ثم وصل إلى مسافة قريبة من بحر برشلونة و أسر 80 راهبا و غيرها من الغنائم(1). كان لهذا النصرأثاره الإيجابية على البلاد فعلى الصعيد الداخلي ازداد الشعب إيمانا بقوة هذه الدولة التي أقامها بإرادته، فازدادت هيبتها و قوتها و نفوذها و هذا لتضامن الشعب و ثقته فيه(2)، كما أصبحت مدينة الجزائر تعج بالأسرى و الغنائم مما انعكس ايجابيا على اقتصادها(3). كان لانكسار هذه الحملة و فرار دوريا رجة عنيفة هزت الدوائر المسيحية، و هو ما دفعها إلى التفكير بتجهيز حملة لحسم الأمر و القضاء على القوة الإسلامية، في حين هز هذا النصر دوائر إسطنبول و جعلها تفكر في منح خير الدين فرصة أكبر و أوسع لاستثمار خبرته و تمكنه من القضاء على أعداء الدولة و الإسلام بصفة أدق و أشمل(4).

ب- احتلال الإسبان لميناء هنين عام 1531م:

أمام هذه الانتصارات المتتالية و كرد فعل من الإسبان على هزيمتهم في شرشال فكروا في معاودة الكرة و تنظيم حملة ضد الجزائر(5)، فاتجهوا غربا و كان ميناء هنين و جهتهم و الذي كان يعتبر منفذا بحريا هاما للدولة الزيانية لقربه من تلمسان، كانت تتخذ مركزا للتبادل التجاري مع المماليك الأوربية خاصة البندقية(6)، كما كان يحمي السفن الراسية فيه من الرياح و الأمواج من ناحية الشرق و الغرب، و ما شجع على احتلالها هي تلك

1- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 152.

2- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 225.

3- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 152.

4- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 225.

5- صالح عباد، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، ص 55.

6- محمد دراج، المرجع السابق، ص 269.

الاضطرابات الداخلية بين أفراد العائلة الحاكمة على الحكم في تلمسان (1).
نتيجة لهذه الاعتبارات قرر الإسبان شن حملة على مدينة هنين، و في أوت 1531م
خرج الأسطول الإسباني بقيادة ألفارودي بازان Dinaharce De Bazane من ميناء مالطا
على رأس 13 سفينة محملة بمختلف التجهيزات والمؤن لمدة شهرين، فاتجهت أولاً إلى
ميناء وهران و انظم إليها 250 جندياً من الحامية الإسبانية بوهران(2)، و رغم قلة جنود
الحامية فقد دافعوا عنها بكل قوة و تمكنوا من القضاء على 45 جندياً إسبانيا و جرح
100 آخر، ونضرا لاختلال ميزان القوى كان النصر لصالح الإسبان، فدخلت قوات دي
بازان إلى الميناء ثم احتلت قصبتها ثم تعرضت المدينة للنهب من طرف الجنود(3).
ترك ألفارو في المدينة حامية إسبانية لحماية المدينة. بعد سقوط ميناء هنين لم يرض
الأهالي بهذا الوضع و فرضوا حصاراً شديداً على الحامية الإسبانية، و قاموا بقطع التموين
عليهم فساءت أحوال الجنود و لم يستطيعوا المكوث في المدينة أكثر من ثلاثة سنوات،
واضطروا إلى إخلائها في سبتمبر 1534م بعد تدميرها و تخريبها(4).

المبحث الثاني: حملة الإمبراطور شارلكان على تونس عام 1535م:

1- إتباع خير الدين تونس للدولة العثمانية عام 1534م:

عانت تونس في بداية القرن 16م وضعا مزرياً ميزه التفكك و الفوضى، خاصة في
عهد الحسن الحفصي الذي بويع في 1526م بعد وفاة والده، بحيث أساء التسيير واضطربت

1- عبد القادر فكايير، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 910- 1206/1505- 1792م دراسة تتناول الآثار السياسية
والاقتصادية والاجتماعية و الثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2012م، ص ص
42 - 43.

2- صالح عباد، المرجع السابق، ص 55.

3- عبد القادر فكايير، الغزو الإسباني...، المرجع السابق، ص 43.

4- محمد دراج، المرجع السابق، ص 171.

عليه البلاد و فقد السيطرة عليها(1)، و انحصر نفوذه منذ عام 1530م في الشمال الغربي من البلاد التونسية الحالية و في بعض المدن النائية مثل سوسة و القيروان و عنابة، أما بقية الجهات استعاد سكانها خاصة القبائل استقلالهم وحربيتهم(2)، ولقد عبّر أبي دينار عن هذا الوضع بقوله: "سمعت من يذكر من أهل تونس أن السلطان الحسن ساءت سيرته فيالناس و اضطربت عليه البلاد و خرجت عن طاعته مدينة سوسة فقام فيها صهره القلبي و قام عليه بالقيروان الشيخ عرفت من مرابطي القيروان... و في أيامه كانت قسنطينة في أيادي الترك، و في أيامه تغلبت الأعراب على جل البلاد، و كانت الشوكة في أولاد سعيد، لأنهم استقروا في البلاد وهدأهم السلطان الحسن بستين ألف دينار"(3).

كان السلطان الحسن غير محبوب من طرف الرعية وذلك لميله للهو و الفجور وإهماله لأمر الملك، و قام بمجزرة في حق إخوته رغبة منه في التفرد بالحكم و لم ينج منهم سوى عبد المؤمن و الرشيد لغيابهما، فمالت عنه الأمة إلى الرشيد الذي لجأ إلى خير الدين مستعينا به ضد أخيه(4).

كانت الفرصة مواتية لأتراك الجزائر و الدولة العثمانية للسيطرة على تونس، فقد كانت تمثل موقعا استراتيجيا في حوض البحر المتوسط قبل سقوطها في يد الإسبان الذين أرادوا السيطرة عليها رغبة منهم في وقف توسع العثمانيين في الحوض الغربي للمتوسط، و هو ما دفع بخير الدين تنظيم حملة على تونس(5).

2- درويش الشافعي، "الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 30، الجزائر، سبتمبر 2017م، ص 3.

3- محمد الهادي الشريف، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع: محمد الشوش، محمد عجينة، ط 3، دار سراس للنشر، 1993م، صص 64 - 65.

4- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المؤنس في أخبار إفريقية و تونس، ط 1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1970م، ص ص 152 - 153.

5- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 229.

6- صالح عباد، المرجع السابق، ص 62.

لجأ الأمير الرشيد إلى خير الدين و الذي اصطحبه معه إلى إسطنبول، و تمكن من إقناع السلطان سليمان القانوني بفتح تونس، خاصة و أن فتحها يمكن الدولة العثمانية من بسط نفوذها في شمال إفريقيا، فأمر السلطان خير الدين بالتوجه إلى تونس لفتحها و تخليصها من هذه الأوضاع المزريّة، بعد ما أتم إعداد أسطوله وزوده السلطان بالجند الإنكشاري و منحه 800 قطعة ذهبية⁽¹⁾. خرج خير الدين بأسطول يحمل حوالي 1800 إنكشاري و 6500 رجل من الألبان و الأناضوليين و اليونانيين، و حوالي 700 رجل من الأعلّاج، و بوصوله إلى عنابة زوده حسن أغا بالإمدادات، ثم سار برا نحو بنزرت و بحرا نحو حلق الوادي⁽²⁾.

تحرك خير الدين إلى بنزرت فوصل إلى تونس فاحتل حلق الوادي وأنزل قواته في البر، ثم دخل تونس و تمكن من الاستيلاء على القلعة، و في أوت 1534 هرب مولاي الحسن في حين ألقى القبض على أنصاره، و بعد استقبال الأهالي لخير الدين ضننا منهم تتصيب الرشيد على العرش، أدركوا أن بلادهم أصبحت تحكم باسم السلطان العثماني و أن الرشيد لن يحضر، فتخوفوا كثيرا و فضلوا حكم بني حفص على حكم العثمانيين، فراسلوا مولاي الحسن طالبين منه العودة إلى تونس و وعدوه بمساعدته لطرده الأتراك⁽³⁾.

تشجع مولاي الحسن لمهاجمة تونس بقوة قوامها 4000 فارس و بعد مواجهات عنيفة بين الطرفين كانت الغلبة له، و مع وصول الإمدادات التي طلبها خير الدين فر مولاي الحسن بعد فقدانه 300 جندي و أعلن الأهالي ولائهم⁽⁴⁾. توجه مولاي الحسن إلى القيروان و جمع حوالي 10000 متطوع، ولما سمع خير الدين بادر بجمع 15000 جندي و 30 مدفع، و التقى الطرفان في الصحراء و فر مولاي الحسن و التجأ إلى الإسبان في حين أعلن

1- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 4.

2- صالح عباد، المرجع السابق، ص 62.

3- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 112 - 113.

4- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 4.

المشايع و الأعيان الولاء للسلطان العثماني(1).

وهكذا أصبحت تونس أيلة عثمانية تشكل خطرا كبيرا على الوجود الإسباني في شمال إفريقيا، و هو ما دفع بشارلكان للتفكير بتوجيه حملة على تونس خاصة بعد فشله في تحقيق هدفه في الجزائر.

2- احتلال شارلكان لتونس عام 1535م:

فشلت محاولات الإسبان في السيطرة على الجزائر فوجه شارلكان أنصاره إلى تونس، و قد كانت الدولة الأوربية تخشى من توحيد المغرب تحت راية الدولة العثمانية خاصة بعد إلحاق تونس بالخلافة العثمانية، و هو ما اعتبره الإمبراطور شارلكان تهديدا للإمبراطورية الإسبانية(2) و لموقعها في صقلية، فقد كانت تونس تشرف على المضيق الصقلي و هو ما يسمح لخير الدين بقطع المواصلات بين حوضي المتوسط الشرقي و الغربي و السيطرة على الطرق التجارية به (3)، وما زاد من تصميمه استنجد مولاي الحسن المخلوع طالبا منه المساعدة لاستعادة عرشه و القضاء على بربروس(4).

أمام استيلاء الأتراك على تونس و قبل أن يستغيث به مولاي الحسن، كان أندريا دوريا قد حث الملك الإسباني على التحرك لطرد القرصنة و الأتراك من تلك البلاد، و قد استغلت إسبانيا ضمان حياد الملك فرانسوا الأول(5) و وجود الجيش العثماني في بغداد، فقرر شارلكان غزو تونس مستغلا استغاثة مولاي الحسن و طلب فرسان القديس يوحنا يد العون لمواجهة الخطر الذي يشكله خير الدين على وجودهم في جزيرة مالطة. كانت هذه العوامل دافعا قويا لشارلكان، و ليس رغبة منه في إعادة مولاي الحسن إلى عرشه أو دفاعا عن فرسان مالطة بل ليضمن لنفسه قاعدة عسكرية على الضفة الجنوبية البحر المتوسط لتأمين

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 113.

2- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 5.

3- محمد خيثر فارس، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط 1، دمشق، 1969م، ص 33.

4- صالح عباد، المرجع السابق، ص 62.

5- جون وولف، المرجع السابق، ص 47.

السواحل الإيطالية من غارات الأتراك و الجزائريين، و تأمين خطوط المواصلات البحرية بين إسبانيا وإيطاليا(1).

بدأ شارلكان يستعد استعدادا عظيما لضرب الإسلام والدولة العثمانية، و بالخصوص خير الدين(2)، فشرع في إعداد حملة عظيمة تتألف من 400 سفينة مختلفة الأنواع و الأحجام و من بينها 90 سفينة ملكية، و أبحر الأسطول الإسباني في جوان 1535م و على متنه 24000 جندي و 15000 فارس(3)(4).

قرر شارلكان أن يقود هذه الحملة بنفسه و قد وصف مارمول كربخال كيف أعد الإمبراطور لهذه الحملة قائلا: " فقرر أن يخرج بنفسه إلى هذه الحملة المقدسة و أعطى أوامره سرا بأن تعد للحرب سفنه (القاليرات) في موانئ إسبانيا و جنوة و نابولي و صقيلة و أن تعد مع سفن الحرب سفن أخرى للنقل ضخام و أن تشتري الأقوات و الذخائر و غيرها من لوازم الحرب و كتب الإمبراطور إلى الدون يان ملك إسبانيا بأن يبعث إليه غليونة أي سفينته الشراعية الحربية الكبرى و كذا عددا من قطع أسطوله الحربي ثم أمر استكمال ما بقي من الاستعداد لمثل هذه الحملة العظيمة"(5).

تعطي لنا المصادر الغربية صورة ضخمة عن قوات الأرمادة المسيحية، التي تم تصنيفها إلى قوات بحرية مكونة من عدة فرق تتصدرها الفرقة الإسبانية الجنوبية وبلاد الفلاندر بقيادة أندريا دوريا و المكونة من 54 سفينة من نوع غالير 70 سفينة كبيرة و 24 سفينة إبريقية، بينما قاد الفرقة البرتغالية أنطوان سالدانا Antoine De Saldanla و المتكونة من 27 سفينة، أما الفرقة الإيطالية المالطية تكونت من 36 سفينة من نوع غالير

1- محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 287 - 288.

2- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 231.

3- جون وولف، المرجع السابق، ص 48.

4- تقر مصادر أخرى بأنها كانت مكونة من 500 قطعة بحرية على متنها 30 ألف مقاتل. ينظر: جون وولف، المرجع السابق، ص ص 47 - 48.

5- مارمول كربخال، إفريقيا، ج 3، تر: محمد حجي و آخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988-1989م، ص ص

بقيادة ألفاربازان Aharbazan، أما القوات البرية كذلك قسمت إلى عدة فرق أولها الفرقة الإسبانية بقيادة الجنرال ماركي دي فاست Marquis De Cuast و المتألفة من 4000 محارب إيطالي من القدماء، أما الفرقة الإسبانية التي ضمت الجنود الجدد بقيادة دوق الألب فرديناند الطليطلي Ferdinand De Toledo وبلغ عددهم 8000 جندي، وتكونت الفرقة الألمانية من 700 رجل بقيادة ماكسيمليان بيدرا بون Mascimilien Piedra Buena وقاد الفرقة الإيطالية أمير سالرن و المتكونة من 40000 جندي، أما الفرقة البرتغالية تتكون من 2000 رجل بقيادة دون لويس، أما الفرسان وهم النبلاء منكل أنحاء أوروبا و الذي بلغ عددهم من 1000 رجل و 500 فارس إسباني بقيادة الماركي دي مونديخار Marquis De Mondejer⁽¹⁾.

كانت هذه الاستعدادات جد ضخمة و هذا ما نتلمسه في الإحصائيات الدقيقة التي أشار إليها مارمول كربخال بقوله: " كان الجيش مكون من كتائب الإسبانيين و الإيطاليين و الألمانين، انطلق الإمبراطور في يوم 30 ماي 1535م من برشلونة على متن سفينة حربية صنعت خصيصا في جنوة بأمر من أندريا دوريا و ركب معه عدد من السادة، و نبلاء القوم الإسبانيين، و كان الأسطول الأوروبي مكون من 74 سفينة حربية خاصة بالإمبراطور و70 سفينة من السفن الضخام، كان من بينها عدد من سفن النقل جاءت من فلاندر، إضافة إلى 24 سفينة من السفن الحربية(الكرافيلات) التابعين لجيش البحر و سفينة ضخمة غليون أرسلها ملك البرتغال"⁽²⁾.

لم تكن قوة خير الدين بكافية لصد هذه الحملة العظيمة⁽³⁾، فقد علم بتلك الاستعدادات لكنه لم يتأكد منها إلا عندما حل بحلق الوادي راهب فلورانسي مبعوث من فرنسا إلى

1- الشافعي درويش، المرجع السابق، ص 6.

2- ما مول كربخال، ج 3، المرجع السابق، ص 34.

3- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 231.

السلطان العثماني، والذي أخبره بجميع ما يتعلق باستعدادات اسبانيا مؤكدا له قيادة شارلكان لها بنفسه، فسارع لطلب النجدة من السلطان العثماني و إبلاغه بضرورة التعجيل بالأجناد، لكن من سوء حظه أن السلطان كان مشغولا بحربه في آسيا أين ألقى فيها بمعظم قواته(1).

شرع خير الدين في إقامة الحواجز في مضيق حلق الوادي، و نصب المدافع وجهاز 12 سفينة حربية راسية في الميناء كما قام بإخفاء سفن أخرى عن الأنظار(2)، وبلغ عدد قواته 8000 جندي من الأتراك و الجزائريين و أهالي تونس وعمل على ترميم القلعة والأسوار(3)(4).

حاولت سفن خير الدين الراسية في ميناء حلق الوادي ضرب السفن الإسبانية، و إبعادها من المناطق التي أرادت الإنزال فيها و أجبرتها على التراجع، إلا أن شارلكان تمكن في 14 جوان 1535م من الإنزال في حلق الوادي، و وقعت مواجهات عنيفة بينهما وتمكنت القوات الإسلامية من قتل نحو 6000 من المسيحيين(5)، إلا أن شارلكان تمكن من الاستيلاء على معقل حلق الوادي (مرسى مدينة تونس) ثم استعد لمهاجمة العاصمة الحفصية(6).

وصل شارلكان إلى مدينة تونس و التقى الطرفان في خزية الكلخ شرقي تونس، و نشب بينهما قتال عنيف(7)، و بينما كان خير الدين يدافع عن تونس وقع هناك حدث عجل بالانهيار، وهو أن الأسرى المسيحيون الذين كانوا محبوسين بالعاصمة الحفصية تمكنوا من تحرير أنفسهم و بلغ عددهم 10000 أسير، فهجموا على معقل القصبية وتمكنوا منه

1- مارمول كربخال، ج 3، المرجع السابق، ص 33.

2- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 7.

3- عزيز سامح التري، المرجع السابق، 115.

4- في حين قدرت مصادر أخرى قواته ب 18000 مقاتل. ينظر: محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المرجع السابق، ص 154.

5- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 7.

6- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 231.

7- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المرجع السابق، ص 154.

وبعد أن قويت شوكتهم اضطر خير الدين الخروج من تونس(1). حاول شارلكان ملاحقة خير الدين و القضاء عليه في عنابة، فأرسل أندريا دوريا بأسطول مكون من 30 سفينة على متنها 2000 رجل، فواجههم خير الدين عند اقترابهم من ميناء عنابة بطلاقات المدافع فاضطروا للانسحاب (2). دخل شارلكان مدينة تونس في 14 جويلية، واستولى على ما بقلعتها و ثغرها من المدافع و المراكب، و في 21 جويلية دخلت جيوشه المدينة و سمح لهم بنهبها فقتلوا ونهبوا و فسقوا فيها، وأحرقوا ومزقوا الكتب النفيسة التي كانت تزرخ بها مكاتب تونس(3)، فأسروا وقتلوا خلق عظيم من أهلها ففر السكان بعائلاتهم، بعدما أباح السلطان الحسن البلاد للنصارى ثلاثة أيام(4)، وذهبت كل مدخرات تونس و خيراتها و نفائسها و أموالها ضحية الغدر والخيانة والنهب والسلب، و بعد أن استتب الأمر للحسن على حساب الأهالي أعاده الإمبراطور شارلكان إلى كرسي الحكم(5)، و في 8 أوت أمضى مولاي الحسن معاهدة مع شارلكان(6)، و وضعته في أدنى مراتب الذل و الإهانة(7). اشترط شارلكان على مولاي الحسن في حالة أنه خالف إحدى هذه الشروط بدفع أول مرة 50000 دوقة و الثانية 10000 دوقة و في الثالثة يسقط حقه في الملك بتونس، و في 17

1- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق. ص 231.

2- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص8.

3- محمد فريد، المرجع السابق، ص 233.

4- محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني، المرجع السابق، ص 155.

5- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق. ص ص 233 - 234.

6- ولعل أهم ما جاء فيها: اعتراف الدولة الحفصية بتبعيتها للدولة الإسبانية، و تنازل لهم عن الموانئ التونسية (حلق الوادي و قرطاج) و مدينتي عنابة و المهديّة، و ألا يستقبل مولاي الحسن أي مهاجر أندلسي يهوديا كان أم مسلما، و إطلاق سراح جميع الأسرى المسيحيين بتونس و السماح للمسيحيين الإقامة في تونس و منحهم حرية ممارسة شعائرهم الدينية، و أن يقدم مولاي الحسن 12 حصانا كل سنة للإمبراطور و يدفع 12000 دوقة سنويا للإنفاق على الجنود المقيمين في حلق الوادي. ينظر: أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 234. عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 119.

7- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 119.

أوت غادر الإمبراطور شارلكان تونس بعد ما ترك حامية عسكرية في حلق الوادي، مكونة من 1000 جندي إسباني و 10 مراكب حربية(1).

حاول الإمبراطور شارلكان بعد ذلك إخضاع المدن الأخرى في إقليم تونس لمولاي الحسن، وإن وضع الحاميات وحكم كل الإقليم التونسي لميكن من الحكمة في شيء أن يعهد شارلكان بانتصاراته إلى شخص ضعيف مثل مولاي الحسن، غير أن استيلائه على تونس عزز مكانته في البحر الأبيض، فموقع حلق الواديعلى الطريق الجنوبي من مضيق صقيلة قد أكملت تقريبا مراقبته على مدخل غرب البحر الأبيض المتوسط(2).

طبقا لهذه المعاهدة المبرمة، قام الإمبراطور باحتلال عنابة في 23 أوت بقيادة ألفا دي بازان وقاموا بالإنزال في السيبوس، فهاجمهم الأهالي وأخرجوهم من الميناء، وفي 25 أوت وصل الجزء الأكبر من الأسطول بقيادة الماركيز موند يجارو الذي كان يتألف من 3000 رجل وقام بالإنزال بعيدا عن المدينة، واحتلوا القسبة والمدينة وأنزلوا عتادهم ومؤنهم وتركوا فيها حامية عسكرية، وقام الماركيز بالسماح لجنوده بنهب المدينة لمدة ثلاثة أيام ولكن النهب استمر أكثر لعدم قدرته على إيقافهم، وظلت عنابة محتلة إلى أن غادروها في 16 أكتوبر 1540م بسبب الظروف القاسية من الجوع و البؤس(3).

3- رد البحرية الجزائرية على احتلال تونس:

لم يستطع خير الدين الوقوف مكتوف الأيدي دون أن يحرك ساكنا، وهو يتابع شراسة الهجوم الصليبي(4) خاصة بعد احتلال تونس و عنابة، و لإثبات أن البحرية الجزائرية

- 1- محمد فريد، المرجع السابق، ص 133.
- 2- جون وولف، المرجع السابق، ص 50.
- 3- صالح عباد، المرجع السابق، ص 63 - 64.
- 4- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 136.

باستطاعتها الرد على إسبانيا بالإغارة على جزرها و سواحلها في الوقت الذي تريد(1). قرر خير الدين نقل الصراع إلى عقر دارهم وتوجيه ضربة لقواعدهم، فاختار مدينة ماهون Mahon عاصمة جزر البليار والمدينة الأولى في جزيرة ميروقة(2).

قاد أسطول مكون من 32 قطعة بحرية فأغار على جزر البليار و سيطر على مدينة ماهون بجزيرة ميروقة، واستولى على عدد هائل من الغنائم و أسر 6000 أسير(3). واصل حملته فتوغل في المحيط الأطلسي حتى وصل إلى مضيق سبتة و وطاف بأسطوله في خليج كديز Kadez، فقام بتخريب ميناء فارو Faro جنوب البرتغال واستولى على الكثير من الغنائم(4).

كانت هذه الغارة ردا عمليا على احتلال تونس، و استطاع خير الدين فيها رد الاعتبار لنفسه و للبحرية الجزائرية، فأفسد فرحة شارلكان بالنصر عقب احتلاله تونس و عنابة، فلم يكتف خير الدين بما حققه في جزر البليار بل استمر في حملاته وغاراته على السواحل الإسبانية و الأوروبية، فأغار على قلعة قسطلييلة Castella في جنوب إيطاليا و قام بتخريبها، و استولى على الكثير من الأسرى و أخذهم إلى إستانبول(5).

تضاءلت أهمية انتصارات الإسبانين في المغرب الإسلامي بعد الإغارة على جزر البليار، وعظمت الشكوك حول ما تبذله القوات الصليبية في مواجهة الخطر الخارجي المتمثل في الدولة العثمانية والجزائر بقيادة خير الدين الذي لا يزال قائما و مستمر(6).

1- محمد دراج، المرجع السابق، ص 297.

2- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 136.

3- محمد دراج، المرجع السابق، ص 297.

4- خير الدين بربروس، المرجع السابق، 179.

5- محمد دراج، المرجع السابق، ص 297.

6- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 136.

4- معركة بروزة عام 1538:

اعتبرت السلطات الإسبانية نفسها راعية المصالح الأوروبية، و قائدة الصراع العسكري في حوض البحر المتوسط بينهما و بين الإيالة الجزائرية و الدولة العلية، بحيث كانت هذه الأخيرة تقود الصراع ضد الأوروبيين في الجهة الشرقية للمتوسط نتيجة لتوسعاتها داخل أوروبا(1).

تحركت أوروبا كرد فعل على هذه التوسعات، فشكلت تحالفا برعاية البابا و زعامة شارلكان في عام 1538م، ضم معظم الدول الأوروبية الكبيرة على رأسها إسبانيا و البندقية بدعم من البابوية(2) و ألمانيا والبرتغال، كما ضم مجموعة من الدول الصغرى فلورنسا و مالطة و جنوة، و لم يتخلف عن هذا الحلف سوى فرنسا وإنجلترا، و كان هدف شارلكان من هذا التحالف تكوين أسطول ضخم قادر على القضاء على القاعدة العثمانية في الجزائر، و منع تقدم العثمانيين نحو أوروبا(3).

تمكن هذا الحلف من حشد أكبر أسطول بحري أوروبي في البحر المتوسط أسندت قيادته إلى أندريا دوريا، ضم أكثر من 600 سفينة من بينها 380 سفينة حربية و 120 سفينة لنقل الجنود و 60000 جندي، و كان قادة هذا الأسطول على ثقة تامة منكسب المعركة و ذلك للتفوق العسكري الكبير، أما الأسطول العثماني فكان مكونا من 122 سفينة على متنها 20000 جنديا بقيادة خير الدين، و بمساعدة أمهر البحارة العثمانيين أمثال صلاح رايس و تورغوت رايس(4).

- 1- طاهر تومي، علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520- 1792م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس. 2018- 2019م، ص 147.
- 2- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 184.
- 3- محمد دراج، المرجع السابق، ص 300.
- 4- نفسه، ص ص 301 - 302.

تحرك الأسطول العثماني بقيادة خير الدين في 25 سبتمبر 1538م باتجاه جنوب غرب بحر إيجه، ورسا بميناء أغريبوز Agriboz في الوقت الذي كان دوريا يقوم بقصف بروزة في ليلة سبتمبر، وهي أحد أهم قواعد الأسطول العثماني على مسافة قريبة من أسطوله(1).

التقى الطرفان وجها لوجه جنوب غرب جزيرة أياما فرا المواجهة لخليج أرتاتا Artata بالضبط في بروزة، فبدأت القوات العثمانية بالهجوم وأخذت القوات البحرية تشكل الهلال للالتفاف حول الأسطول الأوروبي، ثم شرع في تفكيك وحداته، و باغثت السفن الكبيرة من نوع غالليون القصف بالمدافع الطويلة المدى لإحداث خلل في صف العدو إضعافه، ثم تحرك الأسطول الاحتياطي بقيادة ترغوث راييس مهاجما سفن البندقية، بحيث هاجم خير الدين سفن العدو من جهة اليسار فانسحب دوريا إلى جزيرة أيا مافرا(2).

مع حلول الظلام بادر خير الدين بالهجوم على خط السفن العملاقة لفتح الطريق وسطها للوصول إلى السفن الشراعية الصليبية المصطفة خلف السفن العملاقة، فهاجم القوات الصليبية مرة واحدة من جهاتها الأربعة مما أحدث دهشة كبيرة في صفوف النصارى، فتمكنت من وحدات الأسطول المسيحي، و أصبح كل قائد يفكر في الانسحاب للنجاة بنفسه، و مع حدوث انفجار في أحد الأساطيل النصرانية ليلا حدثت فوضى في صفوفهم فاستغلتها القيادات النصرانية للهروب من ساحة المعركة(3).

تفوقت البحرية العثمانية على الأساطيل الأوروبية لتجانسها من حيث الهدف و الغاية و وحدة القيادة، فقد قام خير الدين باختيار سفنه وقادته بعناية، حيث استخدم السفن الخفيفة التي تسهل عليه المناورة والالتفاف حول سفن العدو الضخمة(4)، وذلك خلاف دوريا الذي كان يعتمد على السفن العملاقة التي وجدت صعوبة أثناء تعرضها للقصف في المناورة

1- محمد دراج، المرجع السابق، ص 303 - 304.

2- كمال بوزريعي، محمد دراج، " معركة بروزة Breeze (945هـ- 1538م) و الخليفة الفلسفية في تطوير البحرية العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، م 10، ع 2، الجزائر، 3 - 10- 2022م، ص 272.

3- نفسه، ص 272 - 273.

4- محمد دراج، المرجع السابق، ص 302.

و الحركة لكبر حجمها و كثرة عتادها و جنودها ما جعلها هدفا سهلا للسيطرة عليها(1)، أما من الناحية التقنية فقد استعمل الأتراك مدافع أكثر تطورا من مدافع الأوروبيين(2). و هكذا حسمت المعركة لصالح العثمانيين، كسر فيها كبرياء أندريا دوريا في أكبر هزيمة مدوية في تاريخ أوروبا، أين خسر فيها الصليبيون حوالي 123 سفينة حربية و غنم العثمانيون 36 سفينة و أسروا ما لا يقل عن 3000 أسير، في حين فقد العثمانيون حوالي 400 شهيد و 800 جريح، و بذلك انتهت المعركة بسيطرة العثمانيين على شرق وسط البحر المتوسط(3).

المبحث الثالث: حملة الإمبراطور شارلكان على مدينة الجزائر عام 1541م:

1- الاتصالات الدبلوماسية بين الجزائر و إسبانيا عام (1538 - 1541م):

تميزت العلاقات الإسبانية الجزائرية بالعداء الشديد والصراع المرير، فرغم قوة الأسطول الإسباني إلا أنه لم يستطع حسم الصراع، ووقف عاجزا أمام خصمه خير الدين، وهو ما دفع بالإمبراطور انتهاج الطرق الدبلوماسية لعله يستطيع إقناعه بخيانة سلطانه، و فصل بلاد المغرب الأوسط عن الدولة العلية، فأجرى مفاوضات معه ما بين (1538- 1541م)، بالإضافة إلى المفاوضات التي جرت بين حاكم وهران الكونت دالكوين ConteD'AlcoudeteLe (1534 - 1558م) و نائب خير الدين حسن أغا.

سعى شارلكان للسيطرة على الحوض الغربي للمتوسط من خلال المناطق التي كان يحتلها، كتونس و طرابلس الغرب و وهران و المرسى الكبير، و بجاية و عنابة التي كانت توفر له الدعم و الحماية، وباءت محاولاته بالفشل للمشاكل التي كان يعاني منها داخل أوروبا، خاصة مع فرانسوا الذي سعى لكسب خير الدين(3).

1- كمال بوزريعي، المرجع السابق، ص 373.

2- محمد دراج، المرجع السابق، ص 303.

3- نفسه، ص 306 - 307.

4- طاهر تومي، علاقات الإيالات...، المرجع السابق، ص 148.

فكر بوسيلة تمكنه من كسب خير الدين لجانبه، خاصة و أن هذا الأخير عرف بحبه لحكم إفريقيا و البقاء فيها، فحاول شارلكان استغلال ذلك و عرض عليه حكم شمال إفريقيا بشرط قطع علاقته و صلته بالسلطات العثمانية و إعلان تبعيته للإسبان، بهدف السيطرة على شمال إفريقيا و انتزاعها من العثمانيين⁽¹⁾، و كل ذلك على حساب خيانة خير الدين لبلده و سلطانه و دينه و قومه، فبعث إليه برسالة قائلا: " إن تنزلك عن منصبك كملك للجزائر لتكون بيلربايا عليها حسبما تقتضي به التقاليد العثمانية، يعتبر إهانة بالغة لك و ها أنا ذا أعرض عليك أن تتخلى عن خدمة السلطان سليمان القانوني على أن أجعلك ملكا وحيدا على كل البلاد الإفريقية الواقعة بين البحر الأحمر والمحيط الأطلسي، و ليكن معلوما لديك بأنني لا أريد أن تكون حليفا لي بل يكفي أن تكون صديقا لي و تقطع صلتك بالعثمانيين، فهذا كل ما أريده منك"، فسارع خير الدين بإبلاغ الوزير الأعظم لطفي باشا بما يعده شارلكان، وحذره من خديعته للسيطرة على الجزائر بتجهيز حملة عليها فطلب منه لطفي باشا أخذ الاحتياطات اللازمة لحماية الجزائر من مخططات شارلكان⁽²⁾.

لجأت الدبلوماسية الإسبانية إلى كل الأساليب لإغراء خير الدين كالخديعة و المناورات السياسية، و حسب المصادر الفرنسية بدأت المفاوضات عام 1538م، و كان أندريا دوريا الوسيط المباشر لهذه المفاوضات⁽³⁾، فاقترح على دوريا أن يبعث رسولا إلى نائبه في الجزائر حسن أغا⁽⁴⁾، والذي أعطى له خير الدين تعليمات بأن يجاري الإسبان لكسب الوقت و الاستعداد لمواجهة أي تطورات مرتقبة. انطلقت هذه المفاوضات بوصول الوفد الإسباني

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 155.

2- خير الدين بربروس، المرجع السابق، صص 193 - 194.

3- درويش الشافعي، علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري، والسادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير، في تخصص تاريخ الحديث، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية والاجتماعية، المركز الجامعي بغرداية، 2010-2011م، ص 54.

4- حسن أغا: ولد في ساردينية، و وقع أسير و هو طفل في إحدى هجمات القراصنة الجزائريين على الجزيرة فكان من نصيب خير الدين، وعندما شب حزره خير الدين و قلده قيادة عسكرية لما تميز به من شجاعة، قاد عدة انتصارات في الجزائر. ينظر: محمد خيثر فارس، المرجع السابق، ص 35.

المتكون أونسودي ألكون Aalonso du Alakon و القبطان فيرغارا kaptan Vergara بمعية طبيب يهودي من رعايا الدولة العثمانية يدعى روميو Romeo (1). استمرت هذه المفاوضات لمدة ثلاث سنوات، أين كان خير الدين يطلع السلطان عن كل التفاصيل(2)، و نظرا لاستحالة التوصل إلى نتيجة ترضى الطرفين قام حسن أغا بطرد المفاوضات الإسبانيين، و أمر القبض على الطبيب اليهودي و بعد محادثات طويلة باءت هذه المفاوضات بالفشل لإخلاق خير الدين و حسن أغا للدولة العثمانية و للسلطان(3). قام عملاء شارلكان بعد فشل هذه المفاوضات في استمالة خير الدين باتصالات سرية بواسطة حاكم وهران الكونت دالكوديت مع حسن أغا الذي لم يسلم هو الآخر من هذه الإغراءات، فحاولوا استمالاته لتسليم المدينة بمجرد محاصرتها(4) و فشلت هذه المفاوضات لاتصال أحد القادة الجزائريين بحسن أغا و إبلاغه بعلمه بهذه المفاوضات فأدرك هذا الأخير عواقب الاستمرار فيها، فترجع و أبدى رفضه في الاستمرار للمندوب الدون لوريترو مانويل Don Larengi Manuel (5).

2- حملة شارلكان على مدينة الجزائر عام 1541م:

رغم تلك الهزائم التي منيت بها إسبانيا أكثر من مرة لم تتوقف في محاولتها للسيطرة على الجزائر، فقد قادت في عام 1541م حملة من أشهر وأقوى الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر و ذلك لتزعمها من قبل الإمبراطور شارلكان الذي جمع لها قوة عظيمة. سعى شارلكان جاهدا إلى خلق كتلة أوروبية قوية تجابه العالم الإسلامي ورد الاعتبار للشرف الإسباني الذي تحطم على يد العثمانيين أمام الجزائر عدة مرات عام 1516م

1- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص ص 194- 195.

2- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 54.

3- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 195.

4- جون وولف، المرجع السابق، ص 55

5- درويش الشافعي، المرجع السابق، ص 55.

1519م- 1531م، و كسر التحالف الفرنسي العثماني الذي كان يشكل خطرا كبيرا على سياسته في أوروبا و إفريقيا، و تخفيف الضغط العثماني خاصة بعد استيلائهم على المجر عام 1526م⁽¹⁾ و حصارهم لفينا عام 1529م⁽²⁾ ضننا منه أن نشوب حرب في الحوض الغربي للمتوسط تحتم على سليمان القانوني توجيه قواته إلى جبهة القتال الجديدة، و بذلك يتراجع العثمانيون في النمسا و ألمانيا⁽³⁾، و رغبة منه في الانتقام من الهزيمة العظيمة التي مني بها الأسطول الإسباني في معركة بروزة في عام 1538م، و ازدياد الحملات العسكرية الجزائرية على السواحل الأوروبية (إيطاليا، سردينيا، جزر الباليار)، وهو ما دفع بالأهالي لرفع شكاوي إلى الإمبراطور بسبب هذه الغارات المتكررة، فبعد انتصار بروزة و طرد الإسبان من الجزائر سيطر البحارة العثمانيين على شرق و غرب البحر المتوسط مما صعب على شارلكان السفر من برشلونة إلى نابولي⁽⁴⁾.

وجه شارلكان أنظاره إلى مدينة الجزائر و التي كانت القاعدة الرئيسية لغارات البحارة العثمانيين، و أن احتلالها سيضمن له السيطرة على غرب البحر المتوسط و يؤمن الطرق البحرية بين شطري إمبراطوريته، و هو ما يمكنه من فرض حصار من الشرق و الغرب والجنوب على فرنسا و إخضاعها بشكل نهائي لسلطانه⁽⁵⁾.

1- أعلن السلطان سليمان القانوني الحرب على المجر بحجة أن ملكها لم يهنئه على تبوئه العرش العثماني، وانتصر عليه في معركة موهاكس عام 1526م واستولى على عاصمتها بودابست واستولى على ثلثي أراضي المجر، وبعد نزاع طويل بين السلطان و الإمبراطور عقد الصلح بينهما في عام 1547م بموجبه اخذ السلطان معظم أراضي المجر بما فيها العاصمة. ينظر: محمد محمد صالح، المرجع السابق، ص 240.

2- محمد قن، علجية مقيدش، " حملة شارلكان على الجزائر عام 1541م و نتائجها "، مجلة أفاق للعلوم، م 7، ع 4، الجلفة، 2022م، ص 303.

3- مولاي بلحميسي، غارة شارلكان الخامس على مدينة الجزائر 1541م 948هـ"، مجلة الأصالة الصادرة عن وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، ع 8، 1ماي 1972، ص 95.

4- محمد دراج، المرجع السابق، ص ص 306 - 307.

5- نفسه، ص 307.

استغل شارلكان وجود خير الدين في إسطنبول لقيادة الأسطول العثماني ظننا منه أن غيابه سيؤثر سلبا على الجزائر(1). كان للحقد الديني الموروث عن الحروب الصليبية ضد الشعوب الإسلامية عامة و الجزائر خاصة أثره في هذه الحملة بالرغبة في الانتقام بمحاربة الإسلام و نشر المسيحية ومطاردة الأندلسيين(2)، بالإضافة إلى تقارير الجواسيس الإسبان، التي أكدت أن قوات الجيش العثماني قليلة غير قادرة على حماية المدينة و الدفاع عنها(3). كان التحالف الإسلامي ضد الدول الأوروبية يهدد أساطيلها وغنائمها و كذا سواحلها و أراضيها، خاصة بعد تحول الجزائر إلى قلعة بعد احتلال تونس، فاحتلال الجزائر يفتح فرصة لشارلكان للتوسع الاستعماري داخل البلاد المغربية و استغلال مختلف الثروات الطبيعية و البشرية و الاقتصادية، و أمام تعاضم القوات العثمانية في المغرب دعا شارلكان إلى التخطيط لتحطيم هذه القوة البحرية الجزائرية والعثمانية، ثأرا من الغارات و الهزائم التي مني بها الإسبان، بكسر شوكة الجزائر و هدمها و جعلها قاعدة أساسية لإمبراطورية عظيمة واسعة مترامية الأطراف، خاصة بعد انتخابه إمبراطورا للغرب عام 1519م(4). لم يستمع الإمبراطور إلى النصائح التي قدمها كل من البابا بوليس الثالث (1434-1549م) الذي طلب منه العدول عن شن هذه الحملة قائلا: " إنك سترتكب خطأ فادحا إذا ما خرجت غازيا لإفريقيا في نوفمبر... فانتظر الربيع" وأيده في الرأي أندريا دوريا والملك فرديناند، لكنه كان مصمما على شن هذه الحملة(5)، فزوده الجواسيس الإسبان بالمعلومات الكافية و المفصلة عن الاستعدادات الجزائرية لصد هذه الحملة(6).

1- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 271.

2- محمد فن، المرجع السابق، ص 303.

3- محمد دراج، المرجع السابق، ص 308.

4- محمد فن، المرجع السابق، ص 303.

5- علي العبيدي، "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541، وأثرها على توازن القوى فيغرب المتوسط"، مجلة

عصور، ع 1، الجزائر، 30 جوان 2010م، ص 41.

6- محمد فن، المرجع السابق، ص 304.

شرع الإمبراطور شارلكان في عملية تنظيم حملة في صيف عام 1541م⁽¹⁾، و قد أولى لهذه الحملة أهمية بالغة فجمع لها إمكانيات بشرية و مادية ضخمة بدعم من الكنيسة الكاثوليكية، فقد وافق البابا في عام 1539م منح الإمبراطورية نصف مداخيل الكنيسة⁽²⁾. استغرقت هذه الاستعدادات وقتا طويلا، و انتهت بتجهيز أسطول ضخم لم يشهد له مثيل في القرن 16م، و كانت هذه القوات تشمل على 516 سفينة منها 264 سفن قادرة و 65 سفينة عملاقة، أما بقيتها عبارة عن سفن حربية معدة لخوض المعارك البحرية على متنها 36230 جنديا⁽³⁾، منها 12330 بحريا و 23900 جنديا من القوات البرية و شارك في هذه الحملة قادة أوروبا و نبلاؤها فشكلت قوة من خيرة عائلات اسبانيا و ألمانيا و إيطاليا و كذا فرسان مالطا الذين أرسلوا 240 فارسا و 400 مقاتل من خيرة و أمهر قواتهم العسكرية⁽⁴⁾، بالإضافة إلى عدد من المتطوعين و أرسل البابا يوحنا الثالث جيش بقيادة حفيده كولونا⁽⁵⁾، كما شملت على أكثر 2000 حصان و غيرها من المدافع و أجهزة القتال و الحصار الضرورية⁽⁶⁾، و تولى شارلكان قيادة الحملة بنفسه إلى جانب قادة أكفاء أمثال أندريا دوريا و الكونت دالكوديت حاكم و هران⁽⁷⁾. (أنظر الملحق رقم 8)

أصبحت الحملة الإسبانية جاهزة بشكل كلي فأصدر البابا يوحنا الثالث بيانا نشره في البلاد الأوروبية، و أعلن على أن هذه الحملة صليبية و يجب الانضمام و المشاركة فيها إخلاصا للنصرانية ضد الكافرين⁽⁸⁾.

1- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر، 1964م، ص 64.

2- صالح عباد، المرجع السابق، ص 65.

3- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 198.

4- مبارك بن محمد الهلالي الميلي، المرجع السابق، ص 65.

5- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 149.

6- جون وولف، المرجع السابق، ص 56.

7- صالح عباد، المرجع السابق، ص 65.

8- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 151.

وصلت أخبار الاستعدادات الإسبانية لغزو الجزائر إلى مسامع حسن أغا، فبدأ بالاستعدادات للتصدي لها فطلب النجدة من خير الدين و الباب العالي، فتماطل لظفي باشا في تقديم النجدة لغياب السلطان سليمان في حملة إلى المجر، فوصل الدعم متأخراً، و رغم ذلك شرع حسن أغا في شراء الأسلحة من فرنسا و تجنيد 1500 عامل(1)، وأخذت حكومة الداي كل الاحتياطات للدفاع عن المدينة فقامت بإخلاء المدينة من السكان، و تأكدت من امتثال القبائل الجبلية للطاعة في حالة الحصار و وزعت الجنود على كل الحصون(2).

شرع حسن أغا ببناء أسوار المدينة و ترميم ما هدم منها و قام بتوزيع 400 أسير لحراسة الحارات(3)، و قام بتنصيب المدافع منها 8 مدافع مختلفة الأحجام في البرج الفوقاني و أخريين كبيرين في باب الواد و 11 مدفع في زاوية باب الواد و من هذه الزاوية إلى الباب المقابل للجزيرة 17 مدفعا، و إلى المسجد الكبير 21 مدفعا من البروز و 4 مدافع من الحديد فيما نصب 21 مدفع بين المسجد الكبير و 21 مدفع في دار الصناعة، و في باب عزون 8 مدافع و رست 8 سفن في المرسى تحتوى أكبرها على 17 صف للجدافيين(4).

قدرت الجوسسة الإسبانية عدد العساكر قبل هذه الغارة بنحو 800 تركي و 8000 أندلسي قدموا من بلسنة و غرناطة، و 1400 من الأعلاج و 200 من الأعراب(5)، بقيادة حسن أغا مستعينا بجماعة من زعمائها منبنيهم شيخ المدينة سعيد الشريف و الحاج مامي، و مجموعة من القادة أمثال القائد رمضان و القائد يوسف و غيرهم(6).

1- محمد فن، المرجع السابق، ص ص 304-305.

2- ج، أو، هابنسترايت، المرجع السابق، ص 74.

3- محمد فن، المرجع السابق، ص 305.

4- طاهر تومي، العلاقات الجزائرية...، المرجع السابق، ص 100.

5- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 100.

6- نفسه، ص 99.

فتح حسن أغا مخازن الأسلحة فوزع البنادق و البارود و القذائف على المتطوعين، و حفر الخنادق و رفع الألوية فوق الحصون و الأبراج⁽¹⁾، ثم جمع الأعيان و الشيوخ حول الشيخ سعيد الشريف و أبلغهم أوامره لتنظيم و تنشيط المتطوعين خارج المدينة⁽²⁾.

بعد اتخاذ حسن أغا كل التدابير استدعى أهل المدينة و علمائها وصلاحها و مشايخها و نصب لذلك ديوانا عظيما، وأخذ يطيب نفوسهم⁽³⁾ و يشجعهم بقوله: " إن الأسطول المسيحي ضخم... و لكن لا تنسوا نصر الله الذي يديه المسلمين ضد أعداء الدين " ⁽⁴⁾.

كان من المفترض أن تكون هذه الحملة نزهة لكنها تحولت إلى كارثة هزت العالم المسيحي، فكان على ثقة كبيرة من تحقيق هدفة بسهولة، فأول ما قام به أن أرسل رسالة تهديد إلى حسن أغا يقول فيها: " إن القوة التي تراها ليست أنت فحسب بل إن سيدك الكبير لا يقدر على صدها فإذا كانت لك عينان مفتوحتان و تملك ذرة من العقل ألقى سلاحك و اربط رأسك بمنديل و أتني بمفاتيح قلعة الجزائر، وإذا قدمت علي قبلت الأرض بين يدي سوف أعفو عنك، فأنا ملك إسبانيا و نابولي و صقيلة و هولندا و بلجيكا و أمريكا و إمبراطور ألمانيا، إن أباك و سيدك بربروس فرّ فزعا مني بتونس لا يلوي على شيء فحذا□ر أن تفقد عقلك و تشهر السلاح في وجهي، لأنك إذا فعلت ذلك فإني أقسم بعيسى بآني سوف أمزقك و أعلق أشلائك على أبراج الجزائر"⁽⁵⁾، و كان رد حسن أغا ردا صارما أظهر فيه شجاعته مذكرا إياه بتلك الهزائم المتكررة التي مني بها أمام خير الدين⁽⁶⁾.

تحرك الإمبراطور بأسطوله الضخم من مرسى ماهون في 18 أكتوبر 1541م، و وصل إلى الجزائر صباح 20 أكتوبر و أخذ يعرض قواته أمام المدينة رغبة منه في

1- محمد فن، المرجع السابق، ص 305.

2- صالح عباد، المرجع السابق، ص 65.

3- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 100.

4- جون وولف، المرجع السابق، ص ص 56 - 57.

5- علي العبيدي، المرجع السابق، ص 42.

6- خير الدين بربروس، المرجع السابق، ص 200.

إرهاب حاميتها⁽¹⁾، ثم قطع الخليج و توجه إلى تامنغوست و رسا هناك⁽²⁾. في صبيحة 23 أكتوبر توجه إلى الضفة اليسرى لوادي الحراش، أين بدأت قوته بعملية الإنزال إلى البر، ثم نزل الإمبراطور مع الأشراف و النبلاء و رجال الحامية و أقام المركز العام لأركان حربى بمنطقة الحامة شرقى مدينة الجزائر⁽³⁾، و ذلك بعد محاولة الفرسان و الأهالى اعتراض عملية الإنزال و التقدم إلى أن أسلحتهم لم تكن كافية، ما اضطرهم إلى الانسحاب تاركين الحملة العسكرية تنزل إلى اليابسة، ومع حلول الظلام توجه الحاج باشا مع قواته فشنوا هجوما مفاجئا على خيم العدو، فأحدث اضطرابات فى صفوفهم و أثار الرعب فى أوساط الجيش، و فى مقدمتهم الإمبراطور الذى استيقظ يرتجف، و بعد مناورات بين الطرفين انسحب القائد دون خسائر⁽⁴⁾.

قرر شارلكان البدء بتنفيذ عملياته الحربية فى 24 أكتوبر، فتولى بنفسه قيادة التحرك على رأس الفيلق الألماني، فى حين ترك لفرسان مالطة مهمة حماية الصفوف الأخيرة و أثناء تنفيذ مخططه تعرض للإغارة من طرف المجاهدين، لكن الإمبراطور لم يتردد واستمر فى تقدمه إلى أن وصلت قوته إلى كدية الصابون، فدارت معركة قاسية بينهم و تمكن بعدها من احتلال الموقع الاستراتيجى للكدية و جعلها قاعدة له، ثم بدأ بتوسيع قاعدة عملياته فاحتل مجموعة من التلال التى تصل ما بين كدية الصابون و قنطرة العفرون⁽⁵⁾.

ساهمت تقلبات الطقس فى عرقلة تقدم قوات الإمبراطور نحو المدينة، حيث سقطت أمطار غزيرة أثرت بشكل كبير على المهاجمين لاسيما و أنها أعاقت و صول الإمدادات و المؤن للقوات البرية، فبقيت لمدة ثلاثة أيام دون أكل و شرب مما أثر على معنويات الجنود بشكل كبير، فكان وضعهم كارثى خاصة و أنها استمرت لمدة 60 ساعة متواصلة

- 1- بسام العسلى، المرجع السابق، ص 151 - 152.
- 2- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 92.
- 3- بسام العسلى، المرجع السابق، ص 151.
- 4- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 93 - 94.
- 5- بسام العسلى، المرجع السابق، ص 152.

دون توقف⁽¹⁾، و ما زاد الأمر سوءاً هو هبوب عاصفة قوية، يقول صاحب كتاب الغزوات "اندفعت الرياح الهوجاء من كل حدت و صوب و تكشفت الغيوم و قصف الرعد في كبد السماء و انهمرت على الأرض أمطار كالسيول أو بالأحرى كالطوفان الكوني"، و من شدة الرياح انشق لجيج البحر و صعدت منها أمواج كالجبال⁽²⁾.

أدت هذه العاصفة إلى قطع الحبال و قلع السفن من مراسيها و رمت بها إلى الشاطئ أين ارتطمت بالصخور، و فقد الجدافين السيطرة على المجاديف و استولى الهلع على كل مكان، و ما زاد الأمر سوءاً انتماء الجنود إلى جنسيات و قوميات مختلفة مما صعب التخاطب و التفاهم فيما بينهم⁽³⁾، و استولى المسلمون على السفن التي قذفتها الأمواج الصاخبة إلى الشاطئ، كما أن الأمطار أفسدت مفعول البارود⁽⁴⁾ فأصبحت البنادق بلا فائدة، و تلفت المدفعية وقضى الجنود الليل تحت المطر بعدما اقتلعت خيامهم فأرهقهم التعب⁽⁵⁾.

استغل الجنود المحاصرين الوضع الحرج الذي كانت فيه قوات العدو بفعل الأمطار الغزيرة، و نظراً لمعرفتهم للأماكن و الاستعمال الجيد للأسلحة الأكثر فعالية تحت هذه العاصفة من البارود و الرصاص و طريقتهم التي تعتمد على السرعة و الخفة، انقضوا على الجناح الإيطالي و الفرسان المالبطين في مواقعهم و معاقلمهم، كما قام الجنود المشاة باستفزاز العدو و استدراجه إلى حيث أرادوا، وهذا النوع من القتال يعتمد على الخديعة فقاموا بقذف الإيطاليين و تمكنوا من تشتيتهم و نشروا الرعب في صفوفهم⁽⁶⁾.

في الوقت الذي كان فرسان مالطة يعانون بسبب الأمطار الغزيرة، و مع شروق الشمس استغل حسن أغا مع وكيله الحاج بشير العاصفة و ما رافقها من اضطرابات، فقادوا

-
- 1- علي العبيدي، المرجع السابق، ص 43.
 - 2- أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 115.
 - 3- علي العبيدي، المرجع السابق، ص 43.
 - 4- علي محمد الصلابي، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط 1، دار التوزيع و النشر الإسلامية، 2001، ص 225.
 - 5- أحمد بن أبي الضياف، المرجع السابق، ص 115.
 - 6- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 95 - 96.

هجومًا على القوات الراسية أمام رأس تافورة (1)، فتلقت الفرقة الإيطالية الصدمة الأولى فلم تتمكن من الصمود فاضطرت للتراجع إلى معسكرها، واستمر المهاجمون في التقدم فواصلوا هجومهم حتى اصطدموا بكامل الفرقة الإيطالية التي لم تتمكن من الصمود أمام هذا الهجوم القوي ما أدى إلى انقسامها إلى مجموعات صغيرة، وأبىد الكثير منهم ثم تدخلت فرقة فرسان مالطة مندفعة بكامل قوتها و بعد تدخلهم توقفت هذه المذبحة(2).

أبدى القائد الحاج البشير بطولة رائعة حيث استطاع مع جنوده حصد رؤوس الكثير من الأعداء و ذلك عن طريق الكر والفر(3)، و بعد جهد كبير تمكن القائدان كولونا و سالونمن إعادة جمع ما تبقى من الفرقة الإيطالية، ثم تراجعت قوات المجاهدين و دخلت إلى باب عزون و بعد غلق الأبواب بقيت القوات المسيحية تحت سيل الأمطار(4).

وصلت الأنباء الكارثية التي حلت بالقوة الإيطالية إلى مسامع الإمبراطور، فامتطى جوداه فتوجه على رأس قواته مقتحماً منطقة الخطر تحت نيران الجزائريين و فقد نصف قواته(5)، فاشتعلت الحرب برأس تافورة فكر المسلمون على العدو في الوقت الذي كانت الأمطار تسقط بغزارة(6)، فوقف العدو عاجزاً على استخدام الأسلحة التي أفسدتها الأمطار في الوقت الذي كان المجاهدون على الأسوار يباغتون بأسلحتهم النارية بصورة رائعة وهو ما دفع بالعدو إلى الانسحاب بعد فقدانه الكثير من القتلى(7).

كانت العواصف تقوم بدورها بإغراق الأسطول الإسباني و تشتت قواته، و أسفرت هذه العواصف على كارثة حقيقية أدت إلى تحطيم 150 سفينة قذفتها الأمواج إلى الساحل، فراح الإمبراطور يحاول جمع العتاد و السلاح الذي قذفته الأمواج لكنه وقف عاجزاً أمام

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق. ص 160.

2- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 154.

3- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 225.

4- محمد فن، المرجع السابق، ص 106.

5- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 155.

6- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 104.

7- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 156.

سرعة المجاهدين، فظل يردد "فلتكن إرادتك يارب" فراح يمضي محاولاً إعادة تنظيم قواته في الوقت الذي كان الفزع والرعب يسيطر على رجاله، وهنا وقف بين قرارين إما الانسحاب ببقايا قوته أو إعادة تنظيمها فانقسم القادة في آرائهم⁽¹⁾، وهو الأمر الذي حسمه القائد أندريا حيث راسل الإمبراطور وطلب منه الانسحاب والتوجه إلى تامنفوست لإنقاذ ما بقي من الأسطول والرجوع إلى مملكته سالماً⁽²⁾.

أخذت قوات الإمبراطور بالانسحاب إلى تامنفوست والتي سبقه أندريا دورياً إليها ليهيئ فيها مجيء الإمبراطور، وفي 26 أكتوبر زحف جيش الغارة ونزل بوادي خنيس وقضى ليلته هناك، وفي اليوم التالي واصل الجيش حتى التحق بوادي الحراش وقد أجهده الجوع والبرد⁽³⁾، ووجد الجنود عقبة في طريقهم والمتمثلة في ارتفاع منسوب مياه وادي الحراش، فاضطروا إلى إنشاء جسر من أخشاب السفن للعبور⁽⁴⁾، ثم واصلوا تحركهم فوصلوا إلى وادي الحمير، وفي 28 أكتوبر وصلوا إلى رأس تامنفوست وطول أيام السير كانوا منشغلين في رد غارات المجاهدين، والتي لم تتوقف طيلة السير⁽⁵⁾،

بدأت عملية ركوب البحر في 1 نوفمبر، وانتهت في 3 من نوفمبر ونتيجة لزيادة العاصفة التجأ الإمبراطور إلى بجاية، وفي 16 نوفمبر توجه الأسطول الإسباني إلى صقلية ومالطا، وفي 17 نوفمبر تحرك الإمبراطور مع ما تبقى من جيشه، وبفعل عودة العاصفة اضطر العودة مرتين إلى ميناء بجاية، ثم أبحر في 16 نوفمبر ووصل جزيرة ميروقة في 26 من نفس الشهر ودخل قرطاجة في الفاتح من ديسمبر⁽⁶⁾. رمى شارلكان بتاجه في الأرض بمجرد وصوله إلى بلاده، وأقسم على عدم وضعه إلا بعد أن يستولي

- 1- محمد قن، المرجع السابق، ص ص 306 - 307.
- 2- كورين شوفالييه، المرجع السابق، ص 97.
- 3- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 105.
- 4- صالح عباد، المرجع السابق، ص 68.
- 5- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 159 - 160.
- 6- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص ص 165 - 166.

على الجزائر، و بقيت الجزائر المحروسة منيعة عن المعتدين(1).

نزلت أنباء الهزيمة نزول الصاعقة في أوروبا، فكان لفشل الإمبراطور في الجزائر أثره البالغ على مستوى الأحداث العالمية وقد حفظ الشعر العربي هذا الحدث فقيل:

سلوا شارلكان كم رأى من جنودنا

فليس له إلا هم من زواجر

فجهز أسطولا وجيشا عرمرأ

و لكنه قد آب أوبة خاسر

فلم يبق للإمبراطور حليف سوى هزي الثالث ملك إنجلترا، و كان هذا النصر بمثابة نصر لفرنسا و التي بادر ملكها فرانسوا الأول بعقد معاهدات مع السلطان العثماني، ثم انضم إلى الملك الفرنسي كل من الدوق دي كليف و ملك الدنمارك و ملك إسكندينايا(2).

أسفرت هذه الحملة عن خسائر جسيمة قدرت ب 200 سفينة، من بينها 30 سفينة حربية و 200 مدفع و 12000 قتيل و فقدت إسبانيا كل عتاد الحملة و تجهيزاتها و تموينها، فغنم المسلمين غنائم كثيرة وعظيمة حتى وصفها أحد مؤرخيهم " و بقيت الجزائر كالعروس تختال في حليها و حللها من رخاء الأسعار و أمن الأقطار ولم يبق لهم عدو يخافون منه..."(3)، وأسروا أعدادا كبيرة من الأسرى، و غنم المسلمون المئات من الخيل و كمية من ذخائر الحرب و الأشياء النفيسة، كما استولوا على أموال طائلة(4).

أرسل الكونت ألونزودى في قرطبة من وهران إلى والده الكونت دالكوديت حاكم وهران و الذي كان ينوب عنه أثناء غيابه، تقريرا يعلمه بأن الأتراك أنقذوا 4 سفن إسبانية، و واحدة بها عطب قليل و أخرجوا من البحر 60 مدفع من بينها 20 مدفع ضخمة(5). بادر حسن أغا إلى إرسال تقرير مفصل يبلغ فيه السلطان العثماني بهذا النصر العظيم، و الذي

1- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 161.

2- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 227 - 228.

3- بسام العسلي، المرجع السابق، ص 161.

4- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 107.

5- أحمد توفيق المدني، المرجع السابق، ص 298.

بموجبه عين حسن أغا باشا على الجزائر و نائباً لخير الدين كمكافأة له على مجهوداته(1). بقي المسلمون ينشرون الرعب في قلوب الأوروبيين، و طغى شبح خير الدين و حسن أغا عليهم، حتى أصبح الناس إذا ما رأوا جفينا عن بعد نسبوه إلى خير الدين، فيصعد الصراخ و يفر السكان من ديارهم و حقولهم و متاجرهم، و إذا حطمت الزوابع مركبا يتهمون أن خير الدين هو الذي أثار البحر و هيجه و أغراه على إغراق سفنهم(2). كان لهذه الحملة آثارها في تدهور العلاقات من جديد بين ملكي فرنسا و إسبانيا، فقد تعاون سليمان القانوني مع ملك فرنسا ضد شارلكان، وهو ما أدى إلى انتزاع مدينة نيس من الإسبان و إعادتها إلى فرنسا، كما اتخذ خير الدين من مدينة طولون قاعدة للجيش الإسلامي إلى غاية عام 1544م، وكان يهود العاصمة أكثر الناس فرحا لحقدهم على الإسبان المضطهدين لهم في أوروبا عكس الجزائر التي و جدوا فيها الأمن و الاستقرار(3). اكتسبت الجزائر بهذا الانتصار هيبية دولية بإفشالها مخطط الإسبان الهادف لاحتلال سواحل المغرب عامة و احتلال مدينة الجزائر خاصة، ثم تواصلت انتصارات العثمانيين في المغرب فأجبر الإسبان على الانسحاب قهرا من طرابلس في عام 1552م، و حوصروا في وهران أكثر من مرة بعد عام 1556م، و أخرجوا من تونس نهائيا في عام 1570م(4)، كما اتسعت رقعة نفوذ الأتراك داخل البلاد فتم ضم تلمسان لنفوذ الجزائر و القضاء على دولة بنو زيان عام 1551م(5)، فتركت هذه الهزيمة في نفس الإمبراطور أعمق الجروح، فهو ممثل المسيحية و الحضارة و الحفيد المباشر لإيزابيلا و فرديناند الكاثوليكيين، كما غرست في قلوب الدول الأوروبية عقيدة الخوف طيلة ثلاثة قرون(6).

1- محمد قن، المرجع السابق، ص 307.

2- علي محمد الصلابي، المرجع السابق، ص 228.

3- محمد قن، المرجع السابق، ص 309.

4- مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 109.

5- نفسه، ص 108.

6- مولود قاسم نايت بلقاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيبته العالمية قبل سنة 1830، ج 1، ط 1، شركة دار الأمة للطباعة و النشر و التوزيع، الجزائر، 1985م، ص 142.

وهكذا كان لهذه الحملة آثارها على مستقبل المخططات الإسبانية في شمال إفريقيا ومستقبل الوجود العثماني في الجزائر، و كذا لخريطة الصراع السياسي في الحوض الغربي للبحر المتوسط، و من هنا أطلق على الجزائر اسم الجزائر المحروسة.

6- انتصارات الجزائر على الإسبان بعد حملة الإمبراطور شارلكان:

أ- استرجاع تلمسان عام 1545م:

بعد الهزيمة المدوية التي ألحقت بالقوات الإسبانية الأوروبية المتحالفة التي قادها الإمبراطور شارلكان، أدرك الأهالي أنه لا أحد يمكنه تخليصهم من الاحتلال الإسباني إلا العثمانيين، و بذلك زادت شعبيتهم بين السكان و هو ما عزز نفوذهم داخل البلاد و أثار الرعب في نفوس أعدائهم داخل و خارج البلاد، فالسلطان الزياني الذي كان قد أعلن تبعيته لأسبانيا خاصة بعد انهزام خير الدين في تونس أمام الإمبراطور شارلكان، سارع في إعادة النظر في سياسته فأعلن تبعيته لحسن أغا و السلطان العثماني، و بعد وفاة السلطان الزياني أبي محمد عام 1541م حدثت فتنة بين أبناءه على العرش، و التي غذّاه الإسبان وذلك بمساعدة أبي عبد الله و إجلاسه على عرش تلمسان، و هو ما لم يرض به حسن أغا الذي قاد حملة على تلمسان عام 1542م، وخلالها خلع أبي عبد الله و قام بتنصيب أخيه أبا زيان أحمد ثم عاد إلى الجزائر بعد أن دانت له قبائل العرب باستثناء قبيلة بني عامر(1).

اتجه عبد الله المخلوع إلى الإمبراطور شارلكان يتلمس منه يد العون للرجوع إلى عرشه في تلمسان، و هو ما لباه الإمبراطور الذي أمر بالكوديت بإعداد حملة لاسترجاع المدينة و إعادة تنصيب عبد الله على العرش الذي أصبح من أتباعه، و بعد أن جمع كمية من الذخيرة و المؤن حشد عددا كبيرا من مشاة الأندلس و فرسانها، انطلق من وهران متجها نحو تلمسان على رأس 9000 جندي و 400 فارس، و في المقابل حشد أحمد بوزيان أنصاره من الأعراب البربر و أرسلهم مع جنود المدينة و جعلهم تحت قيادة صهره

1- طاهر تومي، الإيالات المغاربية...، المرجع السابق، ص ص 159 - 160.

المزوار للتصدي لهذه الحملة، فدارت بين الطرفين عدة معارك وكانت الغلبة لصالح حاكم وهران،، فدخلوا المدينة و نهبوا و عاثوا فيها فسادا ثم عادوا إلى وهران بالغنائم(1). كانت هذه الحملة آخر حملة يوجهها الإسبان اتجاه مدينة تلمسان خلال القرن 16، لأن العثمانيين أحكموا السيطرة عليها بعد القضاء على الفتن الداخلية بين أبناء العائلة الزيانية الحاكمة، فقد قاد حاجي باشا حملة على تلمسان فحاصرها إلى غاية قدوم حسن بن خير الدين إليه، و الذي دخل المدينة عام 1545م دون مقاومة و أعلن السكان تبعيتهم له، فقرر دالكوديت في أوت 1546 قيادة حملة لاحتلال مدينة مستغانم و مدينة مازجران، لكنه اضطر لإخلائها لوصول الإمدادات، و أمام ظهور السعديين و زيادة طموحاتهم التوسعية عجل في التدخل المباشر لحكام الجزائر و إنهاء الحكم الزياني فيها نهائيا، حيث اقتحمها الشريف محمد المهدي السعدي في 5 جوان 1550م و دخلها صالح راييس عام 1554م(2).

ب- تحرير بجاية عام 1555م:

التفت صالح راييس إلى الخطر الإسباني في مدينة بجاية، و التي كانت حاجزا في توحيد الأراضي الجزائرية فالخطر الإسباني كان لا يزال قائما شرقا في مدينة بجاية، فقرر صالح راييس تحريرها نهائيا بربط المناطق المتحررة ببعضها البعض في الجهة الشرقية، ثم التوجه إلى الجهة الغربية للقضاء على الإسبان و حلفائهم في وهران والمرسى الكبير(3).

استطاع محمد السعدي استرجاع فاس، و بدأ يستعد رفقة حلفائه الإسبان لضرب الجزائر من جديد، فلما أدرك صالح راييس بهذه الاستعدادات بدأ هو الآخر يستعد لحملة مفاجئة على بجاية لضرب الإسبان و السعديين و طردهم من الجزائر(4)، فسار إلى بجاية على رأس قوة من الانكشارية، فحاصر المدينة من جهة البر ب 40000 من المقاتلين من

1- مارمول كربخال، ج 2، المرجع السابق، ص ص 314.

2- طاهر تومي، الإيالات المغاربية...، المرجع السابق، ص ص 161 - 162 - 163.

3- نفسه، ص 163-164.

4- محمد مختارزغار، "صالح راييس بطل الوحدة و الجهاد 1552-1556"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، م

2، ع 4، جويلية 2020، ص 97.

بينهم 10000 من الفرسان المسلحين بالبنادق أما من جهة البحر ب 22 سفينة حربية بمختلف الأحجام محملة بالمدافع، و تمكنت السفن من اجتياز واد الصومام الذي كان فائضا لتهاطل الأمطار، ثم تمركزت قواته أمام بجاية أين بدأ القيام بعملية الإنزال(1).

باشرت قوات صالح راييس بقصف المدينة فتمكنوا من هدم قصر الإمبراطور في حصن موسى، و لكنهم عجزوا أمام قصر البحر في حصن عبد القادر(2)، إلا أنه تمكن بعد قصف دام خمسة أيام السيطرة على حصن البحر، و هو ما أتاح لقواته إحكام السيطرة على الحصن الأعظم الذي لجأ إليه قائد قوات حرس بجاية الدون ألوز بيرالتا don alonzo de biralta مع من بقي معه من الجنود، وبعد حصار دام 22 يوما أدرك الحاكم الإسباني صعوبة الوضع ليقرر بعدها الاستسلام مقابل إطلاق سراحه(3).

دخل صالح راييس مدينة بجاية في يوم 28 جويلية، وألقى القبض على 600 شخص وغنم الكثير من الأسلحة و الذخائر الإسبانية، و ترك فيها حامية عسكرية على رأسها علي باردو مع 600 إنكشاري لحمايتها و المحافظة عليها(4)، و حدثت صدمة كبيرة في إسبانيا و أوروبا بعد خسارة بجاية أين ظهر ضعف الجيش الإسباني و أثارت شعور الحزن و الأسى و القلق في البلاط الملكي(5)، و على رأسهم الإمبراطور شارلكان و قاداته(6)، و لما وصل الدون ألفونس إلى إسبانيا سجنه الإمبراطور شارلكان وأصدر عليه حكم الإعدام بقطع رأسه أمام الملاء في ساحة مدينة بلد الوليد لعجزه في الحفاظ على مدينة بجاية(6).

1- بلبروات بن عتو، "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510- 1554"، مجلة عصور الجديدة، ع 7-8، خريف شتاء 2012-2013م، ص 185.

1- عزيز سامح التري، المرجع السابق، ص 194.

2- مارمول كربخال، ج 2، المرجع السابق، ص 380.

3- بلبرواتين عتو، المرجع السابق، ص 186.

4- NOUARA BENLI AMAR, Ocupacion Espanola De Bugia, 1510 – 1555, Vol 12, N 3, Algèri, Noremder 2022,p 425.

2- بلبروات بن عتو، المرجع السابق، ص 186.

3- مارمول كربخال، المرجع السابق، ص 380.

خلاصة:

كانت سياسة الإمبراطور شارلكان اتجاه الجزائر في بداية الأمر عبارة عن مناورات متبادلة، فكان لكل فعل رد فعل فكلما أقدم على حملة ترد الجزائر بعمل جهادي، ورغم قوة أسطوله إلى أن أغلب حملاته باءت بالفشل وذلك لوجود القائد العظيم خير الدين بربروس، الذي حمل على عاتقه مهمة الدفاع عن العالم الإسلامي خاصة الجزائر، بل و كان ينقل الصراع إلى عقر داره في جزر البليار و يهدد سواحلها.

أدت محاولات الإمبراطور الفاشلة للسيطرة على الجزائر إلى توجيه أنضاره إلى تونس، والتي عدت تحت لواء الدولة العثمانية وذلك خوفا من توحيد بلاد المغرب تحت راية الدولة العثمانية، و لعل ماسهل عليه تحقيق هدفه هو تحالفه مع مولاي حسن المخلوع في تونس.

اعتبار الإمبراطور شارلكان بأن إسبانيا هي راعية المصالح الأوروبية دفعه إلى تكوين حلف ضم العديد من الدول الأوروبية في عام 1538م، لردع الجزائر و الدولة العلية، إلا أنه مني بأكبر هزيمة مدوية في تاريخ أوروبا .

كما تم حشد تحالف أوروبي ضد الجزائر في عام 1541م، بتكوين حملة ضخمة تولى الإمبراطور مهمة قيادتها بنفسه، و التي تصدى لها حسن أغا و ألحق بها هزيمة نكراء كان لها صدى في حوض البحر الأبيض المتوسط، وذلك بعد محاولات الإمبراطور الفاشلة في استمالة كل من خير الدين وحسن أغا.

الختامة

من خلال دراستي لموضوع مسار و أعمال الإمبراطور شارلكان خلال فترة(1556 - 1558م) توصلت إلى النتائج التالية:

شهدت بدايات حكمة خاصة بعد القضاء على تمرد الكومونيرو إصلاحات جذرية على الصعيد الإداري و الديني والعسكري، خاصة في الجانب العسكري الذي شهد تطورا مهما في مجال الحرب و السلاح والخطط الحربية، و هو ما أدى إلى ظهور مصطلح (الثورة في مجال العسكرية) نتيجة النمو المتزايد في حجم الجيوش و الأسلحة و التوسع في بناء التحصينات.

في الحروب الإيطالية تأججت المنافسة بين أسرتي الفالوا و البربون في فرنسا و أسرة الهابسبورج في إسبانيا، بسبب رغبة كل واحدة منهما التوسع الإقليمي و الإستلاء على ممتلكات جديدة في شبه الجزيرة الإيطالية، بهدف التفوق و السيطرة على القارة الأوروبية.

في هذه الحروب ظفر الإمبراطور شارلكان بمكاسب إقليمية، حيث اعترفت معاهدة كاتو كمبريسيس بالسيطرة الإسبانية على إيطاليا وتأييد نظام شارل الخامس في إيطاليا، أين احتفظت بميلان و نابولي، ووقف شارل الخامس دون تحقيق الوحدة الإيطالية طيلة ثلاثة قرون، وبنهاية هذه الحروب استحوذت إسبانيا على مساحات شاسعة لم تكن تتوقعها عند دخولها الصراع، ولكن هذا لا ينفى أن فرنسا رغم خسارتها أمام إسبانيا أنها ظفرت بمكاسب إقليمية هي الأخرى، و ذلك بالسيطرة على ممتلكات جديدة في شبه الجزيرة الإيطالية و هي أسقفيات متز وتول وفردان و مدينة كانبري، كما وضعت أقدامها في الألزاس و اللورين.

هذه الحروب لم تكن مجرد معارك عسكرية بين الطرفين المتصارعين بقدر ما كانت معارك دبلوماسية، يطلق عليها البعض (الحروب العائلية)، و هو ما أدى إلى ظهور مبدأ توازن القوى و محاولة كل طرف تكوين أحلاف سياسية وعسكرية للوقوف في وجه الآخر،

حتى في بعض الأحيان يتم اللجوء إلى زواج المصالح كأساس للصلح والتقريب بينهما.

أوضحت هذه الحروب أن المصالح السياسية كانت تغطي على الاعتبارات الدينية، فوجد مثلا أن أثناء تدمير مدينة روما تم الهجوم على رجال الدين و أسر البابا و قتل القسيس و الرهبان، و تم تحويل كنيسة القديس بطرس إلى إسطبلات للخيل، بل وتعدى الأمر إلى طغيان المصالح السياسية على المصالح الوطنية، أين تحالف فرانسوا الأول مع العثمانيين ضد الإمبراطور شارلكان.

أدى تماطل الإمبراطور شارلكان في القضاء على حركة مارتن لوثر، و إتباعه سياسة اللين إلى الاعتراف في النهاية بالبروتستانتية كمذهب مستقل عن المذهب الكاثوليكي، وهو ما جر أوروبا فيما بعد إلى حروب دموية استمرت لمدة الثلاثين سنة. شهدت الجزائر أواخر القرن 15م و مطلع القرن 16م فراغ سياسي أدى إلى إضعاف قدرتها الدفاعية، و هو ما جعلها محل أطماع دول الجوار خاصة إسبانيا التي اختصت بشن عدة حملات على سواحلها، و احتلت العديد من مدنها الواحدة تلو الأخرى والتي اشتدت أكثر بعد تولي شارلكان عرش الإمبراطورية الرومانية المقدسة.

كانت سياسة الإمبراطور شارلكان في إفريقيا تهدف إلى السيطرة على شمال إفريقيا وخاصة المغرب الأوسط، لضمان قاعدة بحرية له في الحوض الغربي للمتوسط، ولكن مجيء الإخوة بربروس وقف عائقا أمام تنفيذ مشروعه.

اشتد الصراع بين إسبانيا و الجزائر في الفترة المحصورة بين (1519م - 1531م)، خاصة بعد انضواء الجزائر تحت لواء الدولة العثمانية الإسلامية، و الذي ساعد على ردع إسبانيا وتحرير خير الدين لخصن البنيون، و هو ما اعتبره الإمبراطور خطر كبير يهدد

تواجههم في الجزائر، وفي هذه المرحلة التاريخية الحاسمة جهز الإمبراطور حملة على تلمسان بل وراح ينظم تحالفات مع القوى الأوروبية المسيحية للقضاء القوة الجزائرية التي توحدت مع القوة العثمانية.

فشل محاولات الإسبان في السيطرة على الجزائر دفعت بالإمبراطور شارلكان إلى توجيه أنظاره إلى تونس، خاصة بعد ضمها للدولة العثمانية، ولعل ما سهل عليه تحقيق هدفه هو إتباعه سياسة التحالف مع مولاي الحسن.

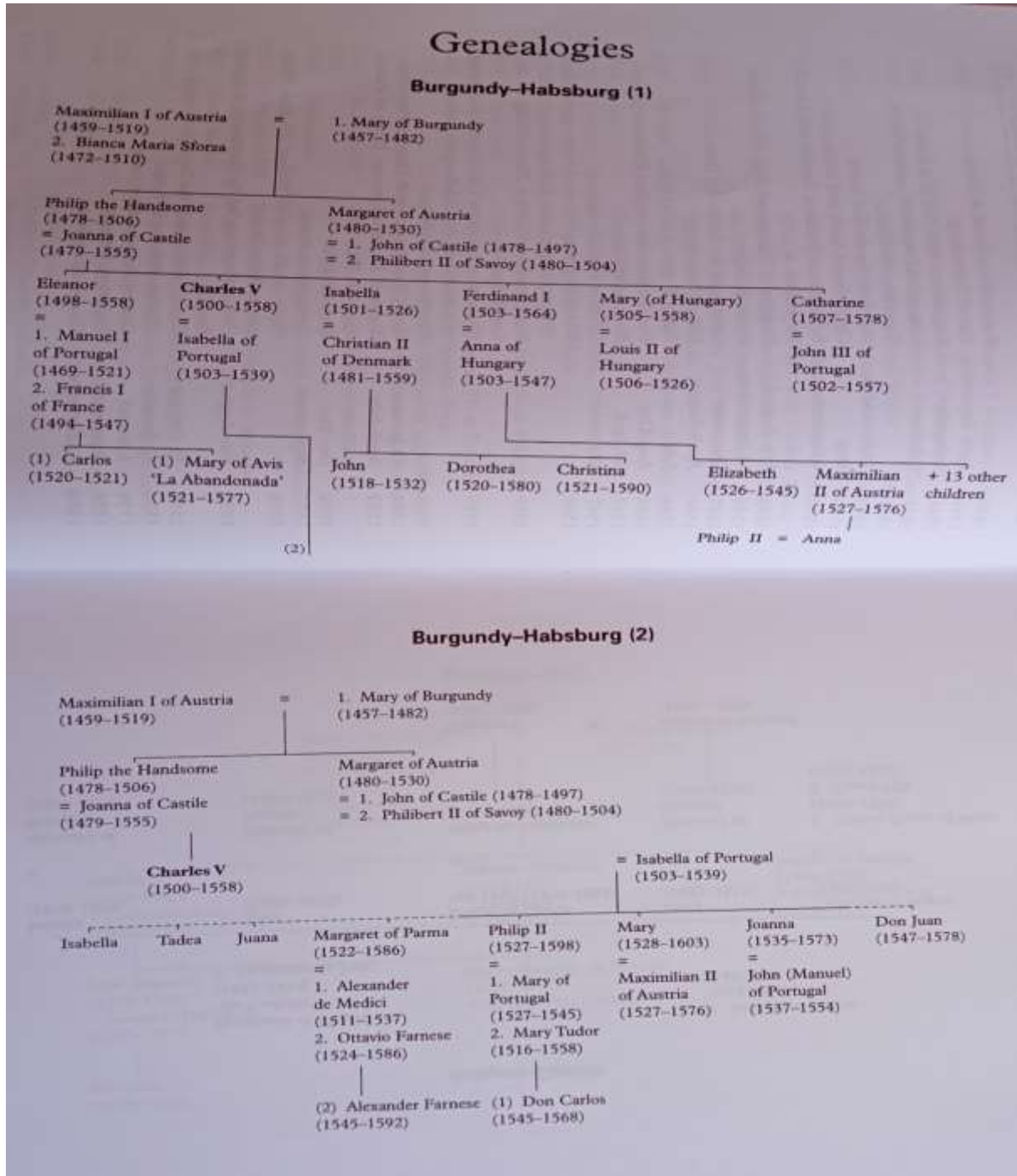
استيلاء الإمبراطور شارلكان على تونس لم يشف غليله، لأن هدفه الرئيسي في الحوض الغربي للمتوسط هو الجزائر، لذلك جهز حملة ضخمة عليها وكله أمل في الاستيلاء عليها وهي حملة تختلف عن التي سبقتها لأنها كانت مشروع أوروبي من طرف الإمبراطورية الأوروبية المقدسة ضد مدينة الجزائر، والتي تعد حامية الإسلام والمسلمين في الحوض الغربي للمتوسط، محاولة بذلك استمالة خير الدين وحسن أغا لخيانة الجزائر و السلطان العثماني، وبفضل حنكتهما فشلت مخططات شارلكان.

فشل معظم حملات الإمبراطور شارلكان يرجع إلى الجهود التي بذلها خير الدين بربروس والذي يعد أكبر عدو لشارل الخامس، فقد كان له هو و أخيه عروج الفضل في وضع الأسس الأولى لتكوين الدولة الجزائرية الحديثة وتثبيت الوجود العثماني بها، كما سعا جاهدين لتحرير الجزائر من سيطرة الإسبان في المدن التي كانت محتلة من طرفهم.

الملاحق

- الملحق رقم (1): الإمبراطور شارلكان في شجرة عائلة بورغندي - هابسبورج.
- الملحق رقم (2): صورة الإمبراطور شارلكان.
- الملحق رقم (3): ممتلكات شارلكان في أوروبا و إفريقيا.
- الملحق رقم (4): أراضي آل هابسبورج في أوروبا.
- الملحق رقم(5): الممتلكات الإسبانية في أمريكا عند تنازل الإمبراطور شارلكان.
- الملحق رقم (6): أوروبا عند تنازل شارل الخامس (1556 - 1557م).
- الملحق رقم(7): إمبراطورية شارل الخامس عام 1525م.
- الملحق رقم(8): جدول يمثل مقارنة المعلومات المعطاة من طرف عدة مؤلفين يتعلق بهجوم شارل الخامس على الجزائر عام 1541م.

الملحق رقم (1): الإمبراطور شارلكان في شجرة عائلة بورغندي - هابسبورج.



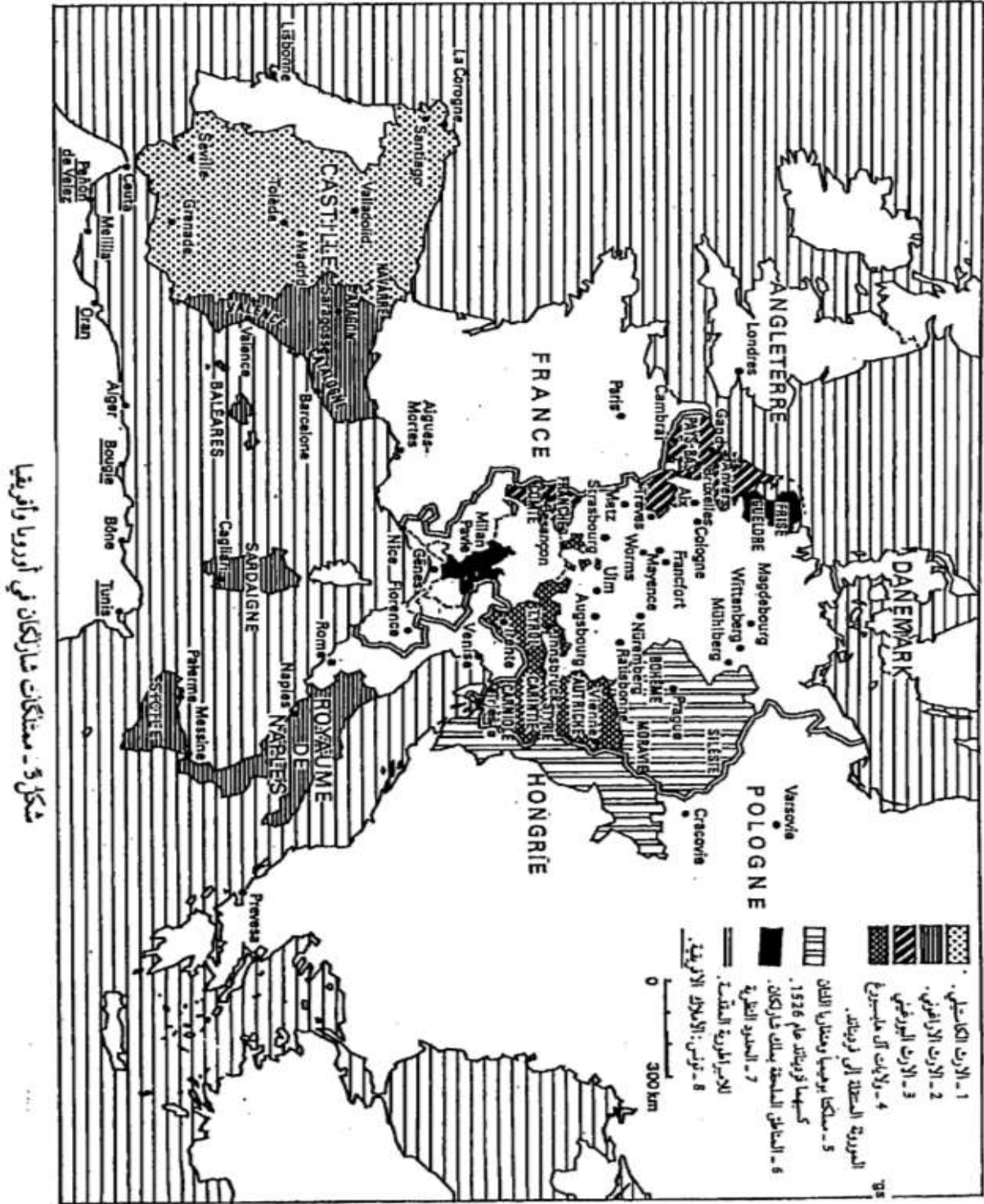
-Win Blackmans, Op.cit, p6.

الملحق رقم (2): صورة للإمبراطور شارلكان.



-Brandi Karl, Kaiser Karl V, Werden Und Schicksal Einer Personlichkeit Und Eines Wiltreiches, Verlag f. Bruckmann Munchen, Germany, p1.

الملحق رقم (3): ممتلكات شارلمان في أوروبا وإفريقيا.



شكل 3 - ممتلكات شارلمان في أوروبا وإفريقيا

- جان بيرنجيه، المرجع السابق، ص 326.

الملحق رقم(4): أراضي آل هابسبورج في أوروبا.



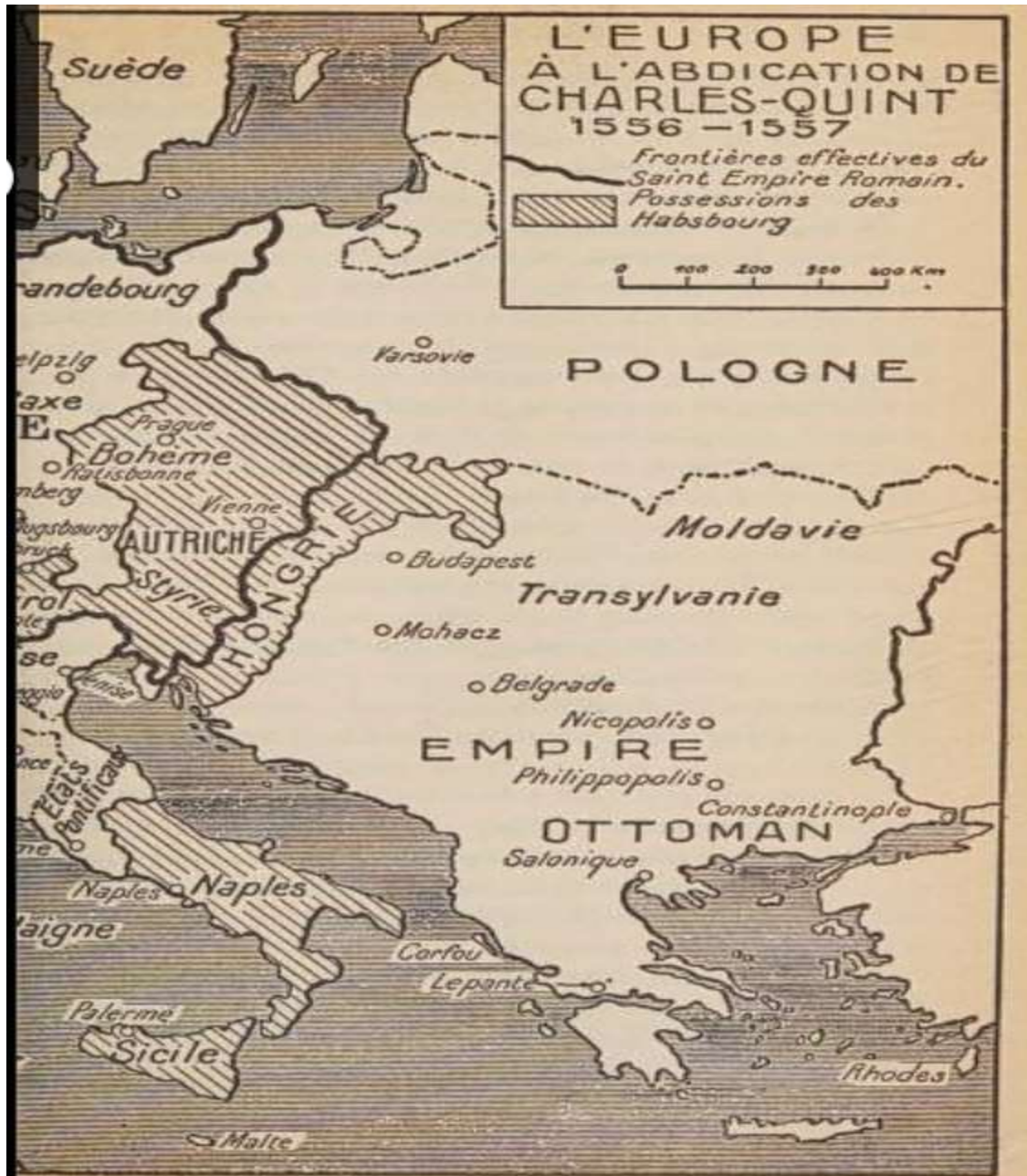
- Win Blackmans, Op.cit, p1

الملحق رقم (5): الممتلكات الإسبانية في أمريكا عند تنازل الإمبراطور شارلكان.



- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, P 105.

الملحق رقم (6): أوروبا عند تنازل شارل الخامس (1556 - 1557م).



- D.B. Wyndham Lewis, Op.Cit, p 153.

الملحق رقم(7): إمبراطورية شارل الخامس عام 1525م.



- خاطر نصري ذياب، التاريخ الأوروبي الحديث، ط 1، الجاندرية للنشر و التوزيع، الأردن، 2011م، ص 575.

الملحق رقم (8): جدول يمثل مقارنة المعلومات المعطاة من طرف عدة مؤلفين يتعلق بهجوم شارل الخامس على الجزائر عام 1541م.

جدول مقارنة المعلومات المعطاة من طرف عدة مؤلفين يتعلق بهجوم شارل الخامس (1541)

المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة	المؤلف	المعلومات المعطاة		
HAMMER	القبور الإسبانية 74 سفينة بحرية 200 سفينة	VILAGANON ON	القبور الإسبانية 65 سفينة بحرية 7.000 سفينة	GRAMONT	القبور الإسبانية 451 سفينة 519 سفينة بحرية 23.900 جندي	GHAZOUET	القبور الإسبانية 410 و 450 سفينة شراعية	HIEDO	القبور الإسبانية 500 سفينة بحرية	MAIREN	القبور الإسبانية 9.000 جندي	CHAJULEN	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 12330 جندي 2400 جندي	ARCHIVE SIMANCAS	القبور الإسبانية 2000 سفينة بحرية 2000 سفينة بحرية
مدير	القبور الإسبانية 74 سفينة بحرية 200 سفينة	القبور الإسبانية 65 سفينة بحرية 7.000 سفينة	القبور الإسبانية 451 سفينة 519 سفينة بحرية 23.900 جندي	القبور الإسبانية 410 و 450 سفينة شراعية	القبور الإسبانية 500 سفينة بحرية	القبور الإسبانية 9.000 جندي	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 12330 جندي 2400 جندي	القبور الإسبانية 2000 سفينة بحرية 2000 سفينة بحرية	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 2400 جندي	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 2400 جندي	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 2400 جندي	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 2400 جندي	القبور الإسبانية 516 سفينة بحرية 2400 جندي		
274 سفينة بحرية 22000 سفينة بحرية 1000 لانس 400 لانس مطفي	274 سفينة بحرية 6000 سفينة بحرية 13000 لانس 400 لانس مطفي	23900 جندي 12330 جندي	شراعية	500 سفينة بحرية	9000 جندي	36330 جندي	516 سفينة بحرية 12330 جندي 2400 جندي	2000 سفينة بحرية 2000 سفينة بحرية	516 سفينة بحرية 2400 جندي	516 سفينة بحرية 2400 جندي	516 سفينة بحرية 2400 جندي	516 سفينة بحرية 2400 جندي	516 سفينة بحرية 2400 جندي		
274400 رطل	26400 رطل	36230 رطل	50000 رطل			36330 رطل									
هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية	هجوم بحرية		
500 لانس بحريين الآلاف من العرب	800 وكي 5000 مدني	800 وكي 5000 مدني		1000 وكي خطية من الأتراك والعرب				2000 سفينة بحرية 2000 سفينة بحرية	800 وكي 5000 مدني	800 وكي 5000 مدني	800 وكي 5000 مدني	800 وكي 5000 مدني	800 وكي 5000 مدني		

- نجيب دكاني، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية و ردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر هجري 10ه السادس عشر ميلادي 16م، ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2001 - 2002م، ص104.

البيبايو غرافيا

أولاً: المصادر و المراجع باللغة العربية

أ- المصادر

- بربروس خير الدين، مذكرات خير الدين بربروس، تر: محمد دراج، ط 1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2010م
- هابنسترايت. ج. أو، رحلة العالم الألماني ج.أو. هابنسترايت إلى الجزائر و تونس و طرابلس (1145هـ-1732م)، تر: ناصر الدين سعيد وني، دار الغرب الإسلامي، تونس.
- كربخال مارمول، إفريقيا، ج 2، تر: محمد حجي و آخرون، دار نشر المعرفة، الإسكندرية، 1988-1989م
- كربخال مارمول، إفريقيا، ج 3، تر: محمد حجي و آخرون، دار نشر المعرفة، الرباط، 1988-1989م.
- مجهول، سيرة المجاهد خير الدين بربروس في الجزائر، تح، تق، تع: عبد الله حمادي، دار القصة للنشر، الجزائر، 2009م
- فراي ديغو هايدو، تاريخ ملوك الجزائر، تر: أبو لؤي عبد العزيز الأعلى، دار الصدى والنشر والتوزيع، الجزائر، 2013م

ب- المراجع

- الجيلالي عبد الرحمان بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج 2، المطبعة العربية، الجزائر، 1955.
- الجيلالي عبد الرحمان بن محمد، تاريخ الجزائر العام، ج 3، ط 7، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1995م.

- المدني أحمد توفيق، حرب الثلاثمائة سنة بين الجزائر وإسبانيا 1492-1792م، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.
- التر عزيز سامح، الأتراك العثمانيون في إفريقيا الشمالية، تر: محمود علي عامر، ط 1، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت.
- العسلي بسام، خير الدين بربروس (و الجهاد في البحر) 1470-1547م، ط 1، دار النفائس، بيروت، 1985م.
- الشريف محمد الهادي، ما يجب أن تعرف عن تاريخ تونس من عصور ما قبل التاريخ إلى الاستقلال، تع: محمد الشوش، محمد عجينة، ط 3، دار سراس للنشر، 1993م.
- القيرواني محمد بن أبي القاسم الرعيني، المؤنس في أخبار إفريقيا و تونس، ط 1، مطبعة الدولة التونسية، تونس، 1970م.
- الملي مبارك بن محمد الهاللي، تاريخ الجزائر في القديم و الحديث، ج 3، مكتبة النهضة الجزائرية، الجزائر 1964م.
- الصلابي علي محمد، الدولة العثمانية عوامل النهوض وأسباب السقوط، ط 1، دار التوزيع و النشر الإسلامية، 2001.
- المقرحي ميلاد. أ، تاريخ أوروبا الحديث 1453-1848، ط 1، دار الكتب الوطنية بنغازي، تونس، 1996م.
- الصباغ عبد اللطيف، تاريخ أوروبا الحديث.
- الصباغ ليلي، معالم تاريخ أوروبا في العصر الحديث، ط 2، منشورات جامعة دمشق، 1998م.
- البطريق عبد الحميد، عبد العزيز نوار، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة إلى أواخر القرن الثامن عشر، دار الفكر العربي، القاهرة، 1997م.

- الجمل شوقي الجمل، عبد الرزاق عبد الله ، تاريخ أوروبا، المكتب المصري لتوزيع المطبوعات، القاهرة، 2000م.
- أمجان فريدون، سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين، ط 2، تر: جمال فاروق، أحمد كمال، تح: إسماعيل كابار، مر: يوكسل جلبنار، عبد الرزاق أحمد، نص: إبراهيم الكبير، نص: أحمد علي شحاتة، دار النيل، مصر، 2013م.
- أشرف سيد محمد صالح، أصول التاريخ الأوربي الحديث، ط 1. دار واتا للنشر الرقمي، الكويت، 2009م.
- أبو عليّة عبد الفتاح، ياغي إسماعيل أحمد، تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر، ط 3، دار المريخ للنشر، المملكة العربية السعودية، 1993م.
- أوزوتا يلماز، تاريخ الدولة العثمانية، تر: عثمان محمد سليمان، مج 1، ط 1، مؤسسة فيصل للتمويل إستانبول، تركيا، 1988م.
- إبراهيم بك حليم، تاريخ الدولة العثمانية العلية، ط 1، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت، 1988م.
- بن أشنهو عبد الحميد بن أبي زيان، دخول الأتراك العثمانيين إلى الجزائر، مكتبة جواد السامي.
- بيرنجيه جان، كونتامين فليب و آخرون، موسوعة تاريخ أوروبا العالم، تر: وجيه البعيني، مر: أنطوان أ. الهاشم، ط 1، منشورات عويدات بيروت، باريس، 1995م.
- جفري برون، تاريخ أوروبا الحديث، تر: علي المزروقي، ط 1، الأهلية للنشر و التوزيع، الأردن، 2006م.
- جلال يحي، أوروبا في العصور الحديثة، الهيئة المصرية العامة للكتاب، الإسكندرية، 1981م.

- دراج محمد، الدخول العثماني إلى الجزائر ودور الإخوة بربروس (1512-1543)، تص: ناصر الدين سعيدوني، ط 1، شركة الأصالة للنشر و التوزيع، الجزائر، 2012م.
- هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوربي الحديث من النهضة الأوروبية إلى الثورة الفرنسية، تر: زينب عصمت راشد، أحمد عبد الرحيم مصطفى، مر: أحمد عزت عبد الكريم، ط 3، دار المعارف، مصر، 1119م.
- ويلز ه. ج، موجز تاريخ العالم، تر: عبد العزيز توفيق المدني حاوير، مر: محمد مأمون نجا، ملتزمة الطبع و النشر مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد و أولاده، مصر.
- وولف جون، الجزائر و أوروبا 1500-1830، تر: تع: أبو القاسم سعيد الله، عالم المعرفة، الجزائر، 2009م.
- حاطوم نور الدين، تاريخ عصر النهضة الأوروبية، دار الفكر، دمشق، سورية، 1928م.
- كابان عبد الكريم علي، الإصلاح الديني في المسيحية مقارنة بالإصلاح الفكري في الإسلام، ط 1، دار دجلة للنشر و التوزيع، الأردن، 2010م.
- ملر أندرو، مختصر تاريخ الكنيسة، ط، مكتبة المهتمين، مصر 2003م.
- محيي حسن فاتن، الإمبراطور شارل الخامس و الحياة الاقتصادية في إسبانيا 1500-1558م، ط 1، مكتب نور الحسن للطباعة و التنضيد بغداد، 2018م.
- محمد صالح محمد، تاريخ أوروبا من عصر النهضة و حتى الثورة الفرنسية 1500-1789م، مكتبة زيد للكتب الإلكترونية و المصورة، بغداد، 1981م.
- نعنعي عبد المجيد، أوروبا في بعض الأزمنة الحديثة و المعاصرة 1453-1848م، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، 1983م.

- نوار عبد العزيز سليمان، جمال الدين محمود محمد، التاريخ الأوربي الحديث من عصر النهضة حتى نهاية الحرب العالمية الأولى، دار الفكر العربي، القاهرة، 1999م.
- نايت بلقاسم مولود قاسم، شخصية الجزائر الدولية و هيبته العالمية قبل سنة 1830، ج 1، ط 1، شركة دار الأمة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 1985م.
- نصري ذياب خاطر، التاريخ الأوربي الحديث، ط 1، الجاندرية للنشر و التوزيع، الأردن، 2011م.
- عصمت راشد زينب، تاريخ أوروبا الحديث من مطلع القرن السادس عشر إلى نهاية القرن الثامن عشر، ج 1، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عمر عبد العزيز عمر، دراسات في التاريخ الأوربي و الأمريكي الحديث، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، 1992م.
- عباد صالح، الجزائر خلال الحكم التركي 1514-1830، دار هومة، 2012م.
- فارس محمد خيثر، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني إلى الاحتلال الفرنسي، ط 1، دمشق، 1969م.
- فكاير عبد القادر، الغزو الإسباني للسواحل الجزائرية 910-1206هـ/1505-1792م دراسة تتناول الآثار السياسية والاقتصادية والاجتماعية و الثقافية على الجزائر، دار هومة للطباعة والنشر و التوزيع، الجزائر، 2012م.
- رمضان عبد العظيم، تاريخ أوروبا و العالم في العصر الحديث من منظور البرجوازية الأوروبية إلى الحرب الباردة، ج 1، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر، 1998م.
- شوفالييه كورين، الثلاثون سنة الأولى لقيام دولة مدينة الجزائر 1510-1541، تر: جمال حمادنة، ديوان المطبوعات الجامعية، تلمسان 2010م.

ج- المقالات في المجلات

- الدرويش جاسم ياسين، العليايوي حسين جبار "مراحل سقوط الجزائر الشرقية (جزر البليار les baleare) (508-687هـ/1114-1287م)", مجلة أبحاث البصرة للعلوم الإنسانية، م 48، ع 1، البصرة، مارس 2023. (130 - 147)
- الشافعي درويش، الحملة الإسبانية على تونس في سنة 1535م"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، ع 30، الجزائر، سبتمبر 2017م. (ص ص - 12)
- العبيدي علي، "الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر 1541، وأثرها على توازن القوى فيغرب المتوسط"، مجلة عصور، ع 1، الجزائر، 30 جوان 2010م. (ص ص 40 - 48)
- بن عتو بلبروات، "بجاية من الاحتلال الإسباني إلى التحرير العثماني 1510-1554"، مجلة عصور الجديدة، ع 7-8، خريف شتاء 2012-2013م (ص ص 174 - 188)
- بلحميسي مولاي، غارة شارلكان الخامس على مدينة الجزائر 1541م 948هـ"، مجلة الأصاله الصادرة عن وزارة التعليم الأصلي و الشؤون الدينية، ع 8، 1، ماي 1972. (ص ص 91 - 111)
- بوزريعي كمال، دراج محمد " معركة برونزه Breeze (945هـ-1538م)، و الخليفة الفلسفية في تطوير البحرية العثمانية"، مجلة دراسات تاريخية، م 10، ع 2، الجزائر، 3 - 10 - 2022م. (ص ص 163 - 277)
- بوطبة لخضر، "الصراع المسيحي الإسلامي في حوض البحر الأبيض المتوسط خلال القرن 16م - الاحتلال الإسباني للمدن الساحلية الجزائرية نموذجا"، المجلة التاريخية الجزائرية، 10، المسيلة، ديسمبر 2018م. (ص ص 117 - 138)

- زغار محمد مختار، "صالح راييس بطل الوحدة و الجهاد 1552-1556"، مجلة الدراسات التاريخية العسكرية، م 2، ع 4، جويلية 2020. (ص ص 90 - 106)
- زيتوني حمزة إسحاق " استنجد الملك الفرنسي فرانسوا الأول بالجزائر إثر الغزو الإسباني لمملكته و الجزائر تلبى 1543م"، مجلة البدر، بشار، 10 - 10 - 2018. (ص ص 1224 - 1235)
- حسن مغتاز التميمي مارياء، " سياسة الإمبراطور شارل الخامس تجاه أوربا (1516-1558)"، مجلة الفنون و الأدب و علوم الإنسانيات و الاجتماع، ع 19، بغداد العراق، جانفي 2018م. (ص ص 239 - 258)
- موسم عبد الحفيظ، " واقع الإصلاح الديني في ألمانيا من اللوثرية الألمانية إلى البروتستانتية الأوروبية"، مجلة متون، م 14، ع 1، الجزائر، 26-02-2021م. (ص ص 68 - 85)
- محي حسن فاتن، " التنظيمات الإدارية و الدينية و العسكرية في إسبانيا خلال حكم الإمبراطور شارل الخامس"، مجلة الآداب، م 1، ع 127، المستنصرية، 2018م. (ص ص 33 - 50)
- نجدة الطاهر، " دور العثمانيين الأتراك في انبعاث وحدة الدولة الجزائرية الحديثة"، مجلة عصور الجديدة، ع 11-12، خريف شتاء فيفري، 2013-2014م. (ص ص 196 - 211)
- سعدي خير الدين، " الحملات الإسبانية على مدينة الجزائر خلال العهد العثماني (1518-1778م) من خلال مخطوط الزهرة النائرة - لابن رقبة التلمساني"، مجلة دراسات و أبحاث، ع 29، إسطنبول، ديسمبر 2017م. (ص ص 88 - 106)

- سماحي جواد، "عامل الدين ضمن صراع القوى الفاعلة بالحوض الغربي البحر المتوسط خلال القرن 10هـ / 16م"، مجلة الواحات للبحوث و الدراسات، ط 14، ع 1، الجزائر، 31 - 01 - 2021م. (ص ص 133 - 153)
- علي ياسين إياد، "مارتن لوثر: بداية الإصلاح و نشأة (البروتستانتية)"، مجلة آداب الرافدين، ع 51، الموصل، 1429هـ - 2008م. (ص ص 1 - 38)
- فكاير عبد القادر، "الحملة الإسبانية على مدينة شرشال و فشلها 1531م"، مجلة دفاتر البحوث العلمية، م 1، ع 2، خميس مليانة، 8 - 5 - 2013م. (ص ص 257 - 265)
- قسول عبد الحميد، "إسهامات خير الدين بربروس (1518- 1543م _ 924- 950هـ) في بناء كيان الدولة الجزائرية الحديثة وفق الدراسات الحديثة"، مجلة دراسات تاريخية، م 8، ع 1، بوزريعة، 2023م. (ص ص 56 - 100)
- قن محمد، مقيدش علجية، " حملة شرلكان على الجزائر عام 1541م و نتائجها"، مجلة أفاق للعلوم، م 7، ع 4، الجلفة، 2022م. (ص ص 300 - 312)

ه - المعاجم الموسوعات

- البعلبكي منير، معجم أعلام المورد موسوعة المورد، ط 1، إ ع: الدكتور رمزي البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، 1992م.
- الزيدي مفيد، موسوعة تاريخ أوروبا الحديث و المعاصر، ج 1، ط 3، دار أسامة النشر و التوزيع، الأردن، عمان، 2009م.
- محاسيس نجاة سليم محمود، معجم المعارك التاريخية، ط 1، دار زهران للنشر و التوزيع، الأردن، 2011.

- نصار حسن محمد، الموسوعة العربية المسيرة، ط 1، شركة أبناء شريف الأنصار للطباعة و النشر و التوزيع، بيروت- لبنان، 2010م.
- غربال محمد شفيق، الموسوعة العربية المسيرة، دار الشعب و مؤسسة فرانكلين للطباعة و النشر، القاهرة، 1965م.

د-الرسائل الجامعية

- الشافعي درويش، علاقات الإيالات العثمانية في غرب المتوسط مع إسبانيا خلال القرن العاشر الهجري، و السادس عشر الميلادي، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، قسم التاريخ، معهد العلوم الإنسانية و الاجتماعية، المركز الجامعي بغيرداية، 2010-2011م.
- دكاني نجيب، الاحتلال الإسباني للسواحل الجزائرية و ردود الفعل الجزائرية خلال القرن العاشر هجري 10هـ السادس عشر ميلادي 16م، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم التاريخ، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة الجزائر، 2001 - 2002م.
- تشيش نبيل، مظاهر التحالفات والصراعات ببلاد المغرب وأثرها في توازن القوى خلال الفترة (1520-1792م)، أطروحة دكتوراه (ل م د) في تاريخ بلاد المغرب الحديث، قسم التاريخ، كلية العلوم الاجتماعية والإنسانية، جامعة الشهيد حمه لخضر الوادي.
- تومي طاهر، العلاقات الجزائرية الإسبانية ما بين القرنين السادس عشر و الثامن عشر على ضوء المصادر المحلية، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم العلوم الإنسانية، كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس سيدي بلعباس، 2014-2015م.

- تومي طاهر، علاقات الإيالات المغاربية العثمانية مع إسبانيا ما بين 1520-1792م، أطروحة دكتوراه في التاريخ الحديث و المعاصر، قسم العلوم الإنسانية و الاجتماعية، جامعة جيلالي اليابس، سيدي بلعباس، 2018 - 2019م.
- غطاس عائشة، العلاقات الجزائرية الفرنسية خلال القرن السابع عشر (1619-1694)، رسالة ماجستير في التاريخ الحديث، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1984-1985م.

ثانيا: المراجع باللغة الأجنبية

أ- باللغة الفرنسية

- Hare Christopher , Agreat Imperor Charles V (1519 – 1558),New York, 1917.
- Mignet .M, Charles Quint Son Abdication, Son Séjour Et Sa Mort au Monastere de Yuste, Paultin· Lheureux Et c, Editeurs Rue Richelieu – 60, Paris, 1854 .
- Wyndham Lewis .D.B , Charles- Quint Empereur D Occident(1500-1558), Traduit De Langlais Par S. Compaux,BiblioTheEque HistoriqueDes EditionsBoulevard Saint-Germain, Paris, 1932.

ب- باللغة الإنجليزية

- Armstrong Edward, The Emperor CharlesV, Macmillan And co, Limited St, Martins Street, London, 1910.

- Blackmans Win, Emperor Charles V 1500 – 1558, Translated By Tsola Van Den Hoven – Vasdon, Arnold Publishers, London, 2002.
- Habsburg Otto Von, Charles V, Translated From The French BY Michael Roos Burlingame Public Library, Cali Fornia, 2013.

ج- باللغة الألمانية

- Brandi Karl, Kaiser Karl V, Werden Und Schicksal Einer Personlichkeit Und Eines Wiltreiches, Verlagf. Bruckmann Munchen, Germany.

د- المقالات في المجلات

- Benli Amar Nouara, Ocupacion Espanola De Bugia. 1510 – 1555, Vol 12, N 3, Algèri, November 2022. (415 - 426)

المحتوى	الصفحة
شكر و عرفان	3
إهداء.....	4
مقدمة.....	أ - هـ
الفصل الأول اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني و الإمبراطوري (1518م -1519م)	
تمهيد.....	13
المبحث الأول الحياة الاجتماعية للإمبراطور شارل الخامس.....	14 - 24
المبحث الثاني اعتلاء شارل الخامس العرش الإسباني عام 1518م ثم العرش الإمبراطوري عام 1519م.....	24 - 33
المبحث الثالث إصلاحات الإمبراطور شارل الخامس في إسبانيا و تنازله عن العرش حتى وفاته.....	33 - 42
خلاصة	43
الفصل الثاني أعمال الإمبراطور شارل الخامس في أوروبا	
تمهيد.....	45
المبحث الأول إسبانيا في الحروب الإيطالية (1515 - 1559م).....	46 - 63
المبحث الثاني الإمبراطور شارل كان في مواجهة الحركة الدينية اللوثرية في ألمانيا.....	63 - 84
خلاصة.....	85

الفصل الثالث المسار العسكري للإمبراطور شارلكان خارج أوروبا

تمهيد.....	87
المبحث الأول الصراع الجزائري الإسباني في عهد الإمبراطور شارلكان(1519 - 1531م).....	88 - 101
المبحث الثاني حملة الإمبراطور شارلكان على تونس عام 1535م.....	101 - 113
المبحث الثالث حملة الإمبراطور شارلكان على الجزائر عام 1541م.....	113 - 129
خلاصة.....	130
الخاتمة.....	132 - 134
الملاحق.....	136 - 143
البibliو غرافيا.....	145 - 155
فهرس الموضوعات.....	156 - 157

ملخص البحث:

يعتبر العصر الحديث من تاريخ إسبانيا من المراحل الحاسمة التي عرفتها إسبانيا في ظل حكم الإمبراطور شارلكان 1519 – 1556م, هذه المرحلة التاريخية الهامة التي كانت لها صلة بعدة بلدان في أوروبا خاصة ألمانيا و إيطاليا وفرنسا وكذا الجزائر و تونس في إفريقيا, فكانت فترة حكمه غنية بالأحداث التاريخية الملحمية, فخاض حروب طويلة مع فرنسا ظفر فيها بمكاسب إقليمية و استحوذ على مساحات شاسعة في إيطاليا, و تزامن مع هذا الصراع ظهور حركة الإصلاح الديني في ألمانيا بزعامة مارتن لوثر والتي رغم الجهود التي بذلها للقضاء عليها فشل واططر في النهاية بالإعتراف بها كمذهب مستقل عن المذهب الكاثوليكي, كما بذل جهود جبارة للسيطرة على شمال إفريقيا خاصة المغرب الأوسط و المغرب الأدنى فشهدت فترة حكمه صراع مرير بينه و بين الجزائر و تونس اللتان كانتا تحت لواء الدولة العثمانية, هذه الشخصية حكمت إمبراطورية عظمى مترامية الأطراف و ذلك لما كانت له من ممتلكات سواء في أوروبا و العالم الجديد وكذا إفريقيا.

The modern era of Spanish history is considered one of the decisive stages that Spain experienced under the of Emperor charles V 1519-1556 AD, this important historical stage that was related to severel countries in Europe, especially Germany, Italy and France, as well as Algeria and Tunisia in Africa, his reign was rich in epic historical events, as he fought long wars with France in which he achieved regional gains and seized vast areas in luther, which despite the efforts he made of the Reformation movement in Germany led by Martin Luther, which despite the efforts he made to eliminate it, he failed and Was eventually forced to recognize it as independent doctrine from the catholic dictrine, and he also made tremendous efforts to control North Africa, especially the central and lower Maghreb, so his reign witnessed a bitter confilict between him and Algeria and Tounisia, which were under the banner of the Ottman Empire, this character rulde a greeat, sprawling empire the parties, because of the possessions he had in Europ, the Naw Wotrld, and Africa.